مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالتعاون مع «الرؤية»

ربيع الثاني 1440هـ – ديسمبر 2018م

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من الأطروحات التي أنجزها العمانيون في الخارج رسالة دكتوراه بعنوان «كفاءة وجدوى التدخّل التعليمي لعلاج مرض انْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم في عمان» قدمها الدكتور خميس بن عبد الله المزيني لجامعة جورج ماسون في أمريكا سنة ٢٠١٧.

يذكر الباحث في ملخص دراسته أن انْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم هو اضطراب مزمن يسهم في حالات بدنية ونفسية عديدة، حيث يؤدي إلى ارتفاع معدلات الاعتلال والوفيات، وله آثار كبيرة على تكاليف الرعاية الصحية، ونوعية الحياة للأفراد المتضررين وأسرهم.

ويؤكد الباحث أن مقدمي خدمات الرعاية الصحية – وخاصة الممرضات في مجال الرعاية الصحية الأولية – في موقع مثالي للحد من العواقب الوخيمة لانْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم إذا كانوا مؤهلين بالمعارف القائمة على الأدلة حول عملية المرض والطرق المناسبة للفحص، والتثقيف الصحي، والتدخلات الوقائية.

وعليه، فإن غرض هذه الدراسة، كما يقول الباحث، هو اختبار الفعالية الأولية وجدوى تدخل التثقيف الصحي عبر الإنترنت بين ممرضات الرعاية الصحية الأولية في عُمان ومعرفة مواقفهن تجاه انْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم.

تم تصميم هذه الدراسة لتقييم الكفاءة الأولية وجدوى البرنامج التعليمي عبر الإنترنت حول انْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم عن طريق التحديد العشوائي للمواضيع إما لمجموعة العلاج أو مجموعة فحص الانتباه. في البداية، تم تقييم المعرفة والمواقف لكلتا المجموعتين عبرة استبانة معدة لهذا الغرض؛ وكلتا المجموعتين أيضا خضع لاختبار المعرفة الأساسية بالسكري من أجل ضبط المقارنة بين النتائج. وبشكل عشوائي، عرض على مجموعة التدخل فيلم من ١٥ دقيقة عنوانه «مقدمة موجزة للمرضات العمانيات حول مرض انْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم»، كما عرض على المجموعة الضابطة فيلم آخر من ١٥ دقيقة حول مرض السكري. وكان قصد الباحث من ذلك توفير المواضيع لكلتا المجموعتين من أجل إكمال الاختبار البعدي؛ ولكن بسبب خطأ في البرمجة، لم تقدم المواضيع للمجموعتين على النحو المنشود. ولذلك، فإن المحصلة تصف النتائج من مجموعة واحدة، لتقييم الفعالية الأولية وجدوى التدخل التثقيفي. كما تم جمع بيانات الجدوى من خلال مقابلات مباشرة لعينة من مشرفي التمريض الذين يشرفون على ممرضات الرعاية الصحية الأولية في المراكز الصحية في محافظة الباطنة في عمان.

ويذكر الباحث بعضا من الآثار المترتبة على الممارسة، ومنها أن انخفاض مستويات المعرفة حول انْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم لهذه العينة من ممرضات الرعاية الصحية الأولية قد يشير إلى عدم قدرتهن على التعرف على المرضى المعرضين لخطر هذا المرض. كما أن تقييم المرضى المعرضين للخطر بشكل مناسب، أو الرجوع حسب الحاجة للأطباء أمر محدود. كما يمكن لمدرسي التمريض النظر في إدخال معلومات حول اضطرابات النوم في مناهج بكالوريا التمريض. ويمكن أن توفر برامج التعليم المستمر برامج مكثفة حول اضطرابات النوم وانْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم لرفع مستوى الوعي بين الممرضين الممارسين.

ختاما يخلص الباحث إلى أنه ينبغي على ممرضي الرعاية الصحية الأولية في عمان أن يقوموا بتقييم المرضى، وتحديد المخاطر الصحية، والرجوع إلى الأطباء أو غيرهم من الممارسين. وفي هذه العينة من ممرضات الرعاية الصحية الأولية، فإن معرفتهن بانْقطاع النَفَس الانْسِدادِيّ أثناء النوم محدودة؛ وانخفاض المعرفة لديهن بالمخاطر والعوامل، والأعراض، وخيارات العلاج قد يضعف من قدرتهن على ضمان تحويل المرضى بشكل مناسب.

hilalalhajri@hotmail.com

- نحن وميكافيلي والديمقراطية
- سبستيان رومان
- تاريخ العرب في كالابريا
- أنطونيو ماوريسيو لوياكونو
- تباطؤ النمو
- جيورجوس كاليس
- من لينين حتى بوتين
- ألكسي فاسيلييف
- تركيا أردوغان
- ألبرتو غاسباريتتو
- الحج في عصر الامبراطوريات
- لوك شانتر
- سلسلة الدراسات الإباضية
- مجموعة مؤلفين
- توحيد العالم
- توماس باور
- بصمة
- روبيرت بولمين
- تاريخ العلاقة
- مجموعة مؤلفين

إصدارات عالمية جديدة

صفحة 22 و 23

نحن وميكافيلي والديمقراطية
سبستيان رومان

محمد الشيخ *

أول ما يُقصد بمفهوم «الديمقراطية»، اشتقاقا، مقدرة الشعب وانتصاره. وهذا تعريف ظاهره أنيق وباطنه عميق. كلا؛ ما كانت الديمقراطية «مثالا» متعاليا فوق التاريخ، ولا كانت هي «مقولة» أبدية يمكن أن تُتَصَوَّر على أنّها تدوم هي هي عبر مختلف العصور والحقب. وإنّما شأن الديمقراطية أنّها مورست ممارسات متباينة، في عصور مختلفة؛ مما جعلها تتحدد في كل مرة تحددا متفردا وتتجدد التجدد؛ إذ ثمة تعبيرات تاريخية متنوعة عن الديمقراطية جعلتها تكتسي تمثلات متباينة في حقول سياقية مختلفة.

واليوم، يحيا الغرب ومنذ أمد على الفكرة الديمقراطية، بحيث أمست الديمقراطية عنده بديهة ليس من شأنها أن تُساءَل. هي إذن عنده أفضل الأنظمة بعد سقوط الشيوعية وبعد تجربة الشمولية. ولَئِنْ حق أنّ الحياة السياسية لا زالت تشهد على خصومات مبادئ وصراعات أفكار، فإنّ الديمقراطية صارت موضع إجماع، وما عادت هي اليوم في الغرب محل خلاف. لكن مؤلف هذا الكتاب يرى أن من شأن غياب التساؤل حول الديمقراطية وعنها أن يترافق مع فقد المعنى الذي يجعل الديمقراطية اليوم تقع في موضع خطر. فلا يكون شعب ما سيد مصيره إنْ هو لم يتساءل حول شروط إمكان مقدرته [=ديمقراطيته]، وإنْ هو لم يعد يتساءل حول المعنى والمضمون المعياري لفكرة «الديمقراطية». وتكمن المشكلة اليوم، في نظر المؤلف، في إعادة إعطاء معنى للحياة الجماعية: كيف يمكن تصور الديمقراطية لجعلها تمرينا حقا وأصيلا؟

يزعم صاحب هذا الكتاب أن الجواب عند هذا السؤال يقتضي منا الأخذ بعين النظر أمرين أساسيين في المجتمعات الحديثة: «واقعة التعدد» و«ظاهرة التنازع». فمن شأن المجتمع الحديث أنه «مجتمع متعدد»، ومن أمره أنه «مجتمع متنازع» متصارع. ويدعي المؤلف أنه لفهم هاتين السمتين تلزم العودة إلى تراث المفكر السياسي الإيطالي ميكافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧) والنهل منه. فمن جهة، ميكافيلي هو منظر النزاع المدني والصراع الاجتماعي بين «الكبار» - من «كبار القوم» - وبين «الشعب» - من «صغار القوم» - أي بين الراغبين في السيطرة (الكبار) والمصارعين للحفاظ على حريتهم (الصغار). وهو الأمر الذي يرى المؤلف أنه لا يزال يحكم المجتمعات إلى اليوم. ومن جهة أخرى، يرى ميكافيلي أن الصراع المدني بين الكبار والصغار لا يمكن فصله عن المتخيل الاجتماعي؛ أي عن تمثلات وتصورات المتنازعين لهذا الواقع. فالواقع في ذاته لا وجود له، وإنما وجوده يكمن في تمثلات أهله؛ أي في مخيالهم الاجتماعي. ذلك أن البشر ميالون بالطبع إلى الخيال وإلى تمثل الواقع عن «موضوعيته» بمعزل. وما كان المتخيل الاجتماعي سوى البعد الرمزي للتمثل الذي يقيم به مجتمع ما هويته. ولا انفصال في السياسة بين المجتمع وصورته أو تخيله.

إشكال الكتاب

يدور الكتاب على التفكير في مسألة الصراع داخل الحياة الديمقراطية، وذلك بغاية معرفة ما إذا كانت الديمقراطية الأصيلة لا تفترض - ويا للمفارقة - جعل الصراع والنزاع والخصام مبدأ الحياة السياسية نفسها، بدل التواؤم والوفاق والانسجام. والإشكال الاستنكاري الذي ينطلق منه المؤلف هو: ألم يعد الصراع هو الأمر الذي لا تفكر فيه الديمقراطية اليوم . بمعنى «اللامفكر فيه»؟ وأليس الخطر اليوم يكمن في النظر إلى كل خلاف داخلي نظرة ارتياب، بل نظرة تحريم؛ وذلك باسم خطر الانزلاق نحو الانشقاق في المجتمع وبث الفرقة؟

لهذا يستعيد المؤلف ميراث ميكافيلي . من خلال فكرتي «الصراع المدني» و«المتخيل الاجتماعي» . في إطار تفكير عام حول مكانة كل من «التوافق» و«التخالف» في الديمقراطية المعاصرة. وهو يقصر بحثه على ما يقع داخل المجتمعات المعاصرة (السياسة الداخلية)، وليس في ما يقع بينها البين (السياسة الخارجية). وغرضه من هذا الأمر إنما هو مساءلة مبلغ درجة التصارعية في الحياة الاجتماعية وترجمتها في السياسة، وذلك من أجل تدقيق شروط إمكان قيام ما يسميه «ديمقراطية أصيلة».

أطروحة الكتاب

يدافع صاحب الكتاب عن أطروحة أساسية: يشكل مفهوما «الصراع المدني» و «المتخيل الاجتماعي» زوجا من المفاهيم أساسيا في الفلسفة السياسية يسمح، من جهة، بفهم الصراع بين «الكبار» و«الشعب» فهما منيرا في فكر ميكافيلي؛ كما يقترح، من جهة أخرى، تحيينا خصبا للنظر في شروط إمكان قيام ديمقراطية يعدها «أصيلة» و«حقة».

وعلى مدار ما يناهز أربعمائة صفحة يحاول المؤلف أن يدافع عن أطروحته، مبوبا بحثه في ثلاثة أبواب، ومفصلا قضايا كل باب في فصول عدة:

ورد الباب الأول من البحث تحت عنوان: الصراع المدني والمتخيل الاجتماعي. وقد فصل المؤلف القول في هذا الباب في أربعة فصول، هي على التوالي: الفصل الأول: السياسة ونكران الصراع. الفصل الثاني: ميكافيلي والتفاهم ضمن الصراع. الفصل الثالث: المتخيل الاجتماعي الميكافيلي. الفصل الرابع: هل ميكافيلي شخص لا تحسن رفقته؟ ومن الملاحظ أن هذه الفصول دارت على أمرين أساسيين: بسط مفاهيم ميكافيلي الجوهرية: «الصراع المدني» و«المتخيل الاجتماعي». والدفاع عن ميكافيلي ضد سوء السمعة الذي ظل يرافق فكره.

وورد الباب الثاني من البحث تحت عنوان: الفضاء العمومي والمتخيل الاجتماعي الحديث. وقد تفصل إلى ثلاثة فصول: الفصل الأول: التوافق والانسجام والمتخيل الاجتماعي لدى هابرماس. الفصل الثاني: الصراع في التفاهم وفي الخلاف المتفاقم (أكسل هونيث ويورغن هابرماس). الفصل الثالث: المتخيل الاجتماعي والرأسمالية الجديدة والإيديولوجيا. ومن الملاحظ أن المؤلف خصص هذا الباب لمناقشة التوجه الفلسفي المستند إلى فكرة «التوافق»، لا سيما عند أصحاب النظرية النقدية (هابرماس، هونيث)، واقفا عند خلافاتهما، مبرزا اعتراضاته على ما ذهبا إليه.

واتخذ الباب الثالث من العناوين العنوان: الفضاء العمومي الخلافي. وقد تكون بدوره من ثلاثة فصول. الفصل الأول: الفضاء العمومي الخلافي: دسترته. الفصل الثاني: اليوطوبيا: مفهوم جوهري. الفصل الثالث: من أجل أخلاقيات ديمقراطية خلافية. وقد دار هذا الفصل برمته على مبدأ الخلاف الاجتماعي: دستوريته وأخلاقياته أو عوائده في الحياة الاجتماعية والسياسية، وذلك ضدا على الفكرة الفلسفية السائدة عن الفضاء العمومي باعتباره، بالأولى، فضاء توافقيا وليس فضاء خلافيا.

حيثيات الأطروحة وتفاصيلها

وهكذا، سعى الباب الأول من الكتاب إلى البرهنة على خصوبة الزوج المفاهيمي: الصراع المدني/المتخيل الاجتماعي، بالاستناد إلى بحوث الباحثة الفرنسية نيكول لورو (١٩٤٣- ٢٠٠٣) صاحبة المباحث الرصينة عن «الحرب الأهلية» الإغريقية (المدينة

المنشرخة: ١٩٩٧ و٢٠٠٥)، ولا سيما بدءا من أعمال ميكافيلي، حيث اقترح المؤلف «تحيينا» لفكرة أن المجتمع المدني والسياسي قائم على التنازع لا على التوافق، وناهض على الخلاف لا على الوئام. وقد استأنس المؤلف بأفكار الفيلسوف الفرنسي بول ريكور (١٩١٣-٢٠٠٥) الذي كان قد أقام بدوره صلة بين الصراع المدني والمتخيل الاجتماعي ترجم عنه في صورة نزاع بين الإيديولوجيا واليوطوبيا. وقد استلهم المؤلف اجتهاداته الحديثة بغاية تسويغ مقاربة جديدة لميكافيلي وتصوره للصراع المدني في الديمقراطية المعاصرة، محينا فكرته القديمة تلك ومحييا لها. على أن حدود ريكور، في رأي المؤلف، تكمن في اقتراحه توافقا تصارعيا لا يستلهم الفكر الميكافيلي بل يخالفه من حيث أنه أكثر توافقية مما كان قد بلغه نظر ميكافيلي الذي لا يقبل التصارع عنده أن يختزل إلى توافق، وحتى إن حدث التوافق، فإنه يبقى توافقا خلافيا؛ أي اتفاقا شكليا على التخالف. لكن أعمال ريكور تحدد، في نظر المؤلف، إطار المتخيل الاجتماعي الحديث الذي يمكن لفكر ميكافيلي أن يستأنف بدأ منه. ذلك أن ميكافيلي يمكن أن يُنظر إليه بحسبانه فكر في يوطوبيا اجتماعية يمكن أن تتحقق على خلاف اليوطوبيات الأخرى التي لا توجد في أي مكان. وإن طابع ميكافيلي المعاصر لكامن، فضلا عن اعترافه بالتعدد الاجتماعي الذي يقوم ويتقوم في وجود طبقات اجتماعية متصارعة، في ارتيابه من الإيديولوجيا التوافقية التي قال بها التراث السياسي الكلاسيكي؛ مما يعطي لفكر ميكافيلي بعدا يوطوبيا من غير أن يفصله عن الواقع الاجتماعي.

وقد دار الباب الثاني من الكتاب على إجراء مقارنة بين أنموذج الفضاء العمومي الخلافي الذي يقترحه المؤلف والتصورات المعاصرة للفضاء العمومي الوفاقي التي يقترحها بعض فلاسفة اليوم. وهنا يستحضر المؤلف النزعة التوافقية التي قال بها الفيلسوف الألماني هابرماس (١٩٢٩-). ذلك أن عند هذا الفيلسوف نجد امتدادا لفكرة «المتخيل الاجتماعي» عند المدرسة النقدية، وهو يطرح مسائل كبرى شأن التوافق وعوائد وإتيقا النقاش والانسجام في المجتمع. كما يقارن المؤلف بين تصوره وتصور فيلسوف الاعتراف الألماني النقدي أكسيل هونيث (١٩٤٩-) والفيلسوف الألتوسيري الفرنسي جاك رانسيير (١٩٤٠-). ويدور الباب الثالث بدوره على مفهوم «الفضاء العمومي الخلافي». وفيه يتساءل المؤلف عن كيف يمكن اليوم استرجاع واستئناف السمتين الأساسيتين في النموذج الميكافيلي: مسألة التفاهم في إطار الصراع. أي البعد المؤسسي وخارج المؤسسي للصراع المدني. ومسألة العوائد الاجتماعية أو الأخلاق الاجتماعية الموضوعية أو ما كان قد ذكره العرب القدامى عن الفارسية: «الآيين»؛ أي أخلاق الجماعة وليس أخلاق الفرد. إذ يرى المؤلف أن جعل الصراع مبدأ الحياة السياسية. على نحو ما رامه ميكافيلي في مشروعه الأصيل. إنما يقتضي اليوم التفكير في الشروط المعاصرة لمأسسته والتفكير في تعابيره غير المأسسة. ولذلك يدور هذا الباب على مسألة دسترة الصراع والتنازع والخلاف، كما يدور بالقدر نفسه على المخيال الاجتماعي وعلى اليوطوبيا التي تكمن أهميتها في المجادلة في أمر وشرعية النظام القائم واقتراح بديل له. ومن هنا كانت أهمية الأخلاق الاجتماعية. الأخلاق الجماعية الديمقراطية. التي ينبغي أن تأخذ بعين النظر أن الأصل في المجتمع الديمقراطي إنما هو الخلاف وليس التوافق، وأن المطلوب هو التفاهم في إطار

التنازع؛ إذ لا تفاهم إذا كنا قد افترضنا التوافق أصلا.

وفي الجملة، غاية الكتاب. وهو ما يفتأ المؤلف يذكر به طيلة صفحات كتابه. اقتراح تحيين وعصرنة لفكر ميكافيلي بدءا من مفهومين أساسيين: مفهوم «الصراع المدني» ومفهوم «المتخيل الاجتماعي». وما يتغياه صاحب الكتاب إنما هو بناء نموذج فلسفي جديد يطلق عليه اسم «الفضاء العمومي الخلافي». وهو مشروع يوجهه مفكران: الفيلسوف التأويلي الفرنسي بول ريكور وتصوره للمتخيل الاجتماعي الحديث، والفيلسوف السياسي الفرنسي كلود لوفور (١٩٢٤- ٢٠١٠) في تصوره لوقف التشابك بين السلطة والحق والمعرفة. ولئن كان رفيق المؤلف في عمله هذا هو، بلا مرية، ميكافيلي، فإن خصمه الذي رافقه طيلة الكتاب هو، بلا شك، هابرماس؛ ولا سيما أخلاقيات هابرماس النزاعة إلى التوافق. ذلك أن شأن النقاش الناجح ألا ينتهي، كما يتمناه هابرماس، بالضرورة إلى التوافق، وإنما أمره أن ينتهي إلى التخالف، وبهذا لا ينبغي تصور الفضاء العمومي دوما بوسمه فضاء توافقيا، بل يمكن تصوره بوصفه فضاء تخالفيا ... والبغية من هذا كله إحداث توليفة أمكن لميكافيلي أن يعثر عليها: التفاهم في نطاق التصارع.

ذلك أن مشكلة المجتمعات الغربية الحديثة ما كانت، على التحقيق، هي التعدد، وإنما هي، على التدقيق، التوافق الجماهيري الذي أصبح يشكل، في نظر المؤلف، مرض الديمقراطية الذي من شأنه أن يصيبها بفقر الدم. لقد أمست الديمقراطية ضحية بداهتها. والغربيون أضحوا من فرط بداهتها لا يستشكلوها بل يعدوها أفضل ما هو ممكن، وأنه يكفي التوصل إلى التوافق حول مبادئ ديمقراطية جميلة حتى تنطبق من تلقاء نفسها. حتى أن البعض ظن أن الديمقراطية يمكن أن توجد من غير ما حاجة إلى تجديدها التجديد. والحال أن الديمقراطية صارت اليوم، في المخيال الاجتماعي المعاصر، تتماهى مع الرأسمالية ومع مجتمع الاستهلاك، وها نحن أولاء نموذج الزبناء-المواطنين الذي أمسوا يحسبون أنفسهم ملوكا وما هم بملوك بل شبه لهم. وها قد أُفرغت حقوق الإنسان، وقد تفردنت، من حمولتها السياسية النضالية وصارت خمولا ووهبا لا كسبا. والحال أن الديمقراطية لا تتعلق بنموذج جاهز، وإنما من شأنها أن تجدد كل التجديد. وهنا يقترح المؤلف، ضد حال الاسترخاء والتواني الذي أصاب الديمقراطية بمقتل، نموذج فضاء عمومي خلافي استقاه من مكيافيلي ويتلخص في مبدأين: ١- يجب أن يعطى للخيال الاجتماعي مقام متعال، وذلك بالانطلاق من فكرة أن ما من واقع نحيا فيه إلا وشأننا ألا نصفه الوصف الموضوعي وإنما أن نتمثله بقدر من التخيل، وذلك بغاية إدراج السياسية في متخيل اجتماعي يحددها وتتحدد به. ٢- ضرورة الأخذ بعين النظر أن مبدأ الحياة السياسية هو الصراع المدني، وذلك بدل تجاوز هذا الأمر التأسيسي نحو أفق توافقي رخو. فالفضاء السياسي فضاء كان وسوف يظل دوما مجال نزاع بين الكبار والصغار؛ أي بين الشخصيات التي بسبب من وضعها الاجتماعي ترغب في السيطرة أو في توسيل القانون لصالحها بغاية تحقيق منافع شخصية، والشعب الصغير أو مجمل الأفراد الذين يصارعون ضد سيطرة الكبار للحفاظ على حريتهم، وذلك ما داموا غير قادرين بدورهم على فرض سيطرتهم.

هناك بعدان للصراع الاجتماعي: ثمة، عند المؤلف، اعتماد على نزعة دستورية كلاسيكية على المستوى المبدئي (قادرة على ضمان إمبراطورية الحقوق، وعلى توزيع السلط ...)، وعلى إقامة غرفتين برلمانيتين، وعلى تصور دينامي للدستور إذا ما نحن أردنا أن تتغذى السياسة من المواجهة بين تمثلات متعارضة للخير المشترك. هو ذا ما من شأنه أن يجعل الديمقراطية خلاقة، مع إعطاء أولوية لليوطوبيا حتى تنازع في الطابع الإيديولوجي للنظام القائم. والبعد الثاني يتعلق بالعوائد الأخلاقية الجماعية الديمقراطية. إذ في إطار الصراع لا يمكن إخفاء الانقسامات الاجتماعية، وإنما ينبغي الحفاظ على أخلاق جماعية ديمقراطية تتمثل. ويا للمفارقة. في تعزيز التفاهم بالتخالف. ذلك أن للصراع الاجتماعي قيمة إيجابية لدى ميكافيلي: ليس يهتم الناس بالحياة السياسية إلا شريطة إعطائهم فرصة لتجربة عوائدية خلافية وليست توافقية (ضد هابرماس)، وتفيد أخلاقيات التخالف تفاهما شكليا بين الأفراد حول شروط إمكان تخالفهم.

منذ فجر الفلسفة السياسية الحديثة يتصارع، بصمت أحيانا وبضجيج أحيانا أخرى، تياران فكريان ينظران إلى المجتمع وإلى السياسة نظرة متعارضة: ثمة من لا يرى في المجتمع والسياسة إلا التصارع والنزاع والقوة (من مكيافيلي إلى صاحب الكتاب مرورا بهوبز وهيجل وكارل شميت وغيرهم كثير)، ومنهم من لا يرى في المجتمع إلا الوئام والوفاق (من روسو إلى حنة أرندت)، وبين التيارين تداول وتهادن.

عنوان الكتاب: نحن وميكافيلي والديمقراطية
المؤلف: سبستيان رومان
اللغة: الفرنسية
دار النشر: المركز الوطني للبحث العلمي
بلد النشر: باريس
سنة النشر: ٢٠١٧
عدد الصفحات: ٤٠٠

*** أكاديمي مغربي**

تاريخ العرب في كالابريا
أنطونيو ماوريسيو لوياكونو

عزالدين عناية *

يشكو البحث التاريخي المتعلّق بالفترة الإسلامية في إيطاليا بوجه عام من حالة من غبن، متأتية بالأساس من وهن التكوين اللغوي في اللسانين العربي والإيطالي من الجانبين، وهو ما مثّل ساترا وحائلا بين الطرفين. لكن إيطاليا تبدو قد فطنت لهذا العَوَر بشكل يفوق ما عليه الحال من الجانب العربي، وتسعى جاهدة لتفادي هذا النقص، وذلك عبْر ما نشهده من تشجيع موجة الاستعراب الإيطالي سيما في أوساط جيل الشباب الذي بدأ يشقّ طريقه بإصرار في تعلّم العربية، سواء ضمن التكوين الجامعي أو خارجه، وهو ما لم يخل من مصاعب وأحكام مسبقة ترهق الدارس أحيانًا.

فبوجه عام غالبا ما ينحصر تاريخ العرب في إيطاليا في أذهان كثيرين بحيز جزيرة صقلية، والحال أن امتداد الحضور العربي أوسع من ذلك التصوّر. فقد شمل امتدادُ الحضارة العربية إقليمًا مهمًا من أقاليم إيطاليا وهو المعروف بـ«كالابريا»، وهي المنطقة الجنوبية الواقعة بين جزيرة صقلية ومنطقة باري. فبالصعود قدمًا نحو شمال إيطاليا نصادف تجارب متفرّدة من ذلك الحضور. إذ احتضنت منطقة بوليا قاعدةً تاريخيةً أخرى للحضارة الإسلامية، مع ما يُعرف لدى المؤرخين الإيطاليين بـ«إمارة باري»، بقيادة خلفون الأمازيغي. وقد نالت الإمارة اهتماما معتبَرا من قِبل أستاذ التاريخ الوسيط جوزوي موسكا (١٩٢٨-٢٠٠٥) في أبحاثه، ونشر عملا مهمًا في الشأن. تمّ ذلك حوالي ٨٤٧م، حتى وإن كان المفرّج بن سلام، الأمير الثاني خلال الفترة القصيرة بين ٨٥٣م و٨٥٦م، هو من وطّد دعائم الإمارة وطلب ولاية الحكم: ليس من الحاكم الأغلبي، خلال الفترة التي كانت فيها صقلية تابعة للدولة الأغلبية في تونس، بل مباشرة من دار الخلافة في بغداد. لاحقا شهدت الإمارة إبان عقدها الأخير تحولا، أي إلى تاريخ ٨٧١م، وذلك مع سِدوان، المعروف بغاراته الكاسحة التي استهدفت المنطقة. تعلّق الأمر بإحدى القلاع الإسلامية القليلة والخاطفة، إذ فضلا عن الفتح الموفّق لصقلية، أقيمت مستوطنات أخرى بترانتو، وغاريليانو في جهة الشمال، وفي فورميا وغايتا. ناهيك عن التاريخ الخاص لإمارة لوشيرا، حيث تحوّل المسلمون في ظرف عقدين من أقلية إلى أغلبية على مستوى عدد السكان، ولكن لم يتبقّ للمسجد الذي أقيم أي أثر، وإن كان المركز الرئيس. الكتاب الحالي الذي نتولّى عرضه «تاريخ العرب في كالابريا»، هو مؤلف من إعداد أنطونيو ماوريسيو لوياكونو، وهو باحث إيطالي مهتمّ بالحقبة الوسيطة من تاريخ إيطاليا، فضلا عن كونه أصيل منطقة كالابريا وعلى دراية جيدة وإلمام عميق بطبوغرافية المنطقة وتاريخها، ناهيك عن كونه خبيرا في الشؤون الأثرية بالجهة. الكتاب الحالي متفرّد من حيث الاشتغال على الجانب الحضاري والأثري والتاريخي للمنطقة في حقبة الوجود العربي في إيطاليا، وهو من الأعمال المهمّة والشاملة في الشأن. حاول صاحبه الإتيان على كافة مظاهر الحضور العربي في الإقليم، من الآثار المادية إلى الألفاظ اللغوية المتخلدة في لهجة متساكني الجهة، وهو ما يجعل الكتاب مرجعًا مهمًا في مجال من مجالات التوسع الحضاري الإسلامي.

قسّم الباحث بحثَه إلى ثلاثة أقسام رئيسة، حيث جاء القسم الأول بمثابة إطار تاريخي للحديث عن كالابريا وعن الفتح الإسلامي. تلاه قسم ثان تحدّث فيه أنطونيو ماوريسيو لوياكونو عن الأطوار التي مرت بها كالابريا مع الحقبة البيزنطية ثم مع الفتح الإسلامي، ناهيك عن تخصيص حيز واسع للأسرة الكلبية الحاكمة في الجهة وإلى حين تراجع النفوذ العربي ومجيء النورمان. أما القسم الثالث من الكتاب فقد ركّز فيه الباحث على جرد الآثار المادية للمنطقة مع بيان تنوعَها، مستعرضا ما خلّفه العرب في شتى المجالات العمرانية والهندسية والفنية والزراعية، ثم خصّص حيزا ضمن هذا القسم للحديث عن الحضور البارز للعربية في اللهجة المحكية لكالابريا.

التاريخ والأسطورة

أطلّ الحضور العربي في كالابريا منذ القرن التاسع للميلاد، في فترة كانت فيها المنطقة تحت سلطان الدولة البيزنطية. ويرد في إحدى الروايات أن أول مجيء للعرب إلى المنطقة كان مع ظهور سفينة عربية في عرض البحر قبالة كالابريا، حصل ذلك في الرابع عشر من يوليو سنة ٦٥٠ ميلادية، حين اقتربت سفينة تابعة للسّراسِنة (المسلمين) من شاطئ تاوريانه. وقد ورد ذلك في يوميات بطرس أسقف المدينة، حيث اندلعت عاصفة هوجاء فجأة، صرّح على إثرها المتابعون للحدث أنّها كانت بفعل بركة من بركات القديس سان فانتينو العجوز.

لقد مثّلت غارات العرب على المنطقة تهديدا متكررا. ففي إحدى الغارات التي تعود إلى العام ٨١٢م، تروي أسطورة أن القدّيس فاوستينو دي سيراكوزا، وقد عاش قبل خمسة قرون واجترح معجزات، قد ظهر على الشاطئ بين الصواعق والعواصف ليغرق سفن الخصم في أكثر من مناسبة. بشكل فعلي، منذ ما يزيد على ألف سنة، سنة ٩٠٢م، حقّق إبراهيم الثاني، بعد أن اجتاز مضيق مسّينا، نصراً حتى وإن كان دخوله إلى ريجيو كالابريا خاطفاً، إذ توفّي على إثر ذلك خلف أسوار كوسينزا، أثناء متابعة حملته العسكرية، دون أن يستقرّ له مقام في غزواته على البرّ. لاحقا، سنة ٩٥٠م، علا في ريجيو كالابريا أول مسجد، حتى وإن كان مسجدا خاطفا، إذ استمرّ قائما مدة أربع سنوات. وأيضاً سنة ٩٨٦م، كما دوّن مؤرّخ عايش تلك الحقبة: «سقطت المدينة المقدّسة شيراكو بأيدي العرب وعاثوا فسادا في كالابريا». كما غامر بعد خمسمائة سنة أيضا الأميرال المعروف خيرالدين بربروس، فقد قام بإنزاله في ريجيو كالابريا رفقة اثني عشر ألفاً من رجاله، وحاصر المدينة وحمل معه زهاء الألف أسير، كانت من بينهم ابنة دياغو غايطاني، حاكم المدينة، التي تزوّجها لاحقاً.

وتكشف الوقائع التاريخية أن أول مظهر من مظاهر الحضور العربي في كالابريا كان بوساطة التجارة، ليتطوّر مع مرور الوقت إلى توغل في النسيج الاجتماعي. فقد كان مقدم العرب إلى كالابريا في البدء مصلحيا نفعيا، بدا ذلك جليا في انتشار التقنيات والمعارف الجديدة التي مسّت جوانب اقتصادية مثل الريّ والحرف والخزف، بما أدخل تحويرا جليا على العوائد الاجتماعية والإنتاجية. هذا وإلى حدود النصف الثاني من القرن الحادي عشر، حين احتل النورمان كالابريا، كانت المنطقة تُعدّ بمثابة الحد

الفاصل بين الشمال المسيحي والجنوب الإسلامي، وبين الشرق البيزنطي والغرب المغاربي، فقد كانت كالابريا نقطة وصل وفصل بين عديد القوى النافذة في المتوسط.

وبشأن تفسيرات دواعي حضور العرب في كالابريا يرد في الشأن، بعد تواجد العرب في بالرم (باليرمو)، وجد الدوق أندريا دي نابولي (٨٣٤-٨٤٠ م) نفسه محاصرا من طرف قوات الأمير اللونغوباردي شاردو (٨٣٢-٨٣٩ م)، الذي هاجم مدينة برتينوبيا بحثا عن منفذ على البحر التريني. قرّر قنصل نابولي الاستنجاد بعرب باليرمو الذين تدخلوا في الصراع، وهكذا أبعدوا الخطر اللونغوباردي، ومن هناك بدأ التوغل العربي في المنطقة.

الاستشراق الداخلي والاستشراق الخارجي

نشير في الأثناء إلى أن ثمة تقليدا سائدا في الدراسات التاريخية الإيطالية الحديثة والمعاصرة، انشغل تحديدا بالحضور العربي الإسلامي متتبّعا تغيّر أشكاله وتبدّل أوضاعه، حاول ألاّ ينحصر بالجنوب، بل كثّف أبحاثه في شتى أرجاء إيطاليا وامتدّ إلى أقاليم واقعة في الوسط والشمال، حيث لم يكن ذلك الحضور العربي نفوذا عسكريا وتسييرا سياسيا فحسب. وهذا التقليد السائد في الدراسات التاريخية يمكن أن نطلق عليه «الاستشراق الداخلي»، وقد شهد تطورا بيّنا سيما في العقدين الأخيرين، وتركّز اهتمامه في الفترة الإسلامية وما بعدها مع مجموعة من الباحثين منهم ماركو برانكو، وأميديو فينيللو، وأليكساندرو فانولي. في مقابل ذلك الاستشراق الداخلي نجد «استشراقا خارجيا» ارتبط بهواجس التوسع الاستعماري والتطلع إلى إنشاء مستعمرات في إفريقيا والشرق، كان من أبرز أعلامه: ميكيلي أماري (١٨٠٦-١٨٨٩) أبرز المعنيين بهذا التفرع التاريخي سيما من خلال كتابه المعروف «تاريخ مسلمي صقلية» الصادر في ترجمة عربية في فلورنسا ٢٠٠٣. إذ سرعان ما دبت لوثة السياسة في الاستشراق الإيطالي وغدا عينا ودليلا للتوسع الاستعماري، حيث انضمّ ثلة من آباء الاستشراق الإيطالي إلى «لجنة المصالح الاستعمارية المكلّفة بالشؤون الإسلامية» سنة ١٩١٤، منهم ليونه غايطاني وكارلو ألفونسو نللينو، وإغناسيو غوديي، وكونتي روسيني، ودافيد سانتيلانا، وهذا الأخير هو تونسي يهودي الديانة عُيّن سنة ١٩١٣ أستاذ التشريع الإسلامي في جامعة روما. وقد أورد الباحث فلافيو ستريكا في بحث بعنوان: «كارلو ألفونسو نللينو ومشروع احتلال ليبيا»، في مجلة «حوليات» التابعة إلى كلية العلوم السياسية في كالياري سنة ١٩٨٣، أن المستشرق نللينو قد شارك في مجمل الاجتماعات واللجان التي قدّمت المشورة للمستعمر بشأن القضايا الإسلامية إبان احتلال ليبيا. ما يكشف عنه البحث الأثري الحالي في كالابريا أن كثيرا

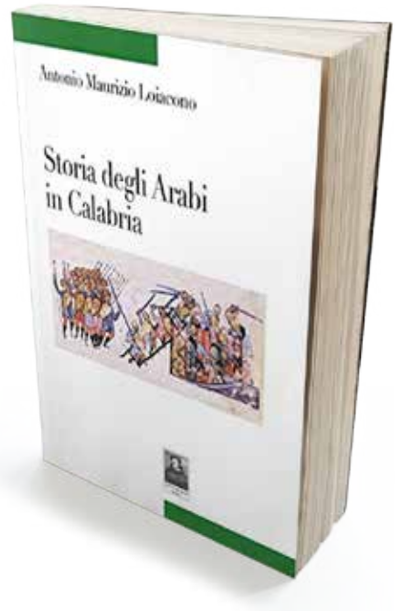

من المعالم العمرانية العربية قد توارت. حيث هُدّمت العديد من المساجد أو جرى تحويلها إلى كنائس، تشهد على ذلك العديد من البنايات القديمة في كالابريا التي تحمل هندسة عمرانية شرقية جلية، وتنتشر أمثلة من تلك الأبنية في تروبيا وسكاليا وكوسينزا وكاتنزارو. كما نجد العديد من فضاءات العبادة التي تعود إلى حقبة النورمان تتضمّن عناصر معمارية وزخارف متأتية أو مستوحاة من الثقافة الإسلامية. كما هو الشأن في كنيسة ماريا ديل باتير بمنطقة روزانو، وأيضًا في كنيسة سانتا ماريا داي تريدينتي وكنيسة سان جوفاني تريستيس. وأما اللقى الأثرية الفخارية التي تعود إلى الحقبة العربية فهي وفيرة في الجهة، وهي إما من إنتاج خزفي محلّي أو مستورَدة من أصقاع العالم الإسلامي.

الآثار الفيلولوجية

ومن ضمن الآثار الباقية يخصص الباحث فصلاً مهمًا للآثار اللغوية العربية في لهجة كالابريا المحلية الراهنة، وهو كمّ لغوي ثري ومتنوع، يمسّ عديد المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية. ففيما يتعلق بالكيل والوزن نجد مفردات عدة منها: «كنتارو» (قنطار)، و«كافيزو» التي تعني (قفيز) بالعربية، ونجد «روطولو» التي تعني (رطل)، و«تومانو» التي تعني (ثمنة). أما في المجال الزراعي وهندسة الري فنجد وفرة هائلة في المصطلحات منها «فورا» التي تعني (فورة) الماء، و«جابيا» التي تعني (الجابية) و«مركاتو» التي تعني (المرقد) المخصص للرعاة والخدم، و«مرجيو» التي تعني (المرج)، و«سينا» التي تعني (السانية) و«زرفاتا» التي تعني (الزريبة). أما في مجال علم النبات فنجد «كرّوبا» التي تعني (الخروب)، و«كوتوني» التي تعني (القطن)، و«جونجولانا» التي تعني حب (الجلجلان)، و«زاهارا» التي تعني (زهر) البرتقال و«زبيبو» التي تعني (الزبيب).

وفيما يتعلق بالفلاحة البحرية نجد كلمة «شاباكا» و«شابِكا» التي تعني (الشبكة). وأما ما تعلق بأدوات الاستعمال فنجد كلمة «بالاتا» التي تعني (البلاط) الأرضي، و«باردا» التي تعني (البردعة)، و«بوطانا» التي تُنطَق أحيانا «فوتانا» وتعني (البطانية)، و«كارافا» التي تعني «الغرّاف»، و«كوفا» التي تعني (القفّة) و«فونداكو» أي (الفندق) وتعني الدكان أو المتجر، و«جارّا» التي تعني (الجرة)، و«هازانا» التي تعني (خزانة) و«جوبوني» التي تعني (الجبّة) المغاربية، و«ماتافو» التي تعني (المعطف)، و«مطراهو» التي تعني (المطرح)، و«ساطوري» التي تعني (الساطور) و«شاشينة» التي تعني (الشاشية) المغاربية، و«زمبيلي» التي تعني (زمبيل). وفيما يتعلق بالمهن نجد «هراري» أي (الحرائري)، و«سكارو» أي (السقاء). وكذلك أسماء حيوانات مثل «كنزيرو» التي تعني (الخنزير)، و«جيورانا» وتعني (الجرانة) الضفدعة. أما ألقاب العائلات فنجد على سبيل المثال: «باريللا» أي (بار الله)، و«فادللا» أي (فضل الله)، و«مامون» أي (ميمون)، و«مدافري» أي (مظفري)، و«مولي» أي (مولى) و«نايمي» أي (نعيمي). كما نجد تعابير وصيغا مثل «مباطولا» أي (باطل)، و«كسارا» أي (خسارة)، و«جوفا» أي (جحا)، و«مشكينو» أي (مسكين).

يسدّ كتاب أنطونيو ماوريسيو لوياكونو، الذي حاولنا الإتيان على أهمّ محاوره بإيجاز، ثغرة مهمة في البحث التاريخي الإسلامي في إيطاليا، سيما بتركيزه على فضاء محدد. فقد تميز الكتاب بالتقصي والتوثيق في ما أورده، وهو ما يجعل من المؤلَّف وثيقة مهمة وضرورية لكل من يروم البحث في تاريخ المنطقة فترة الحضور الإسلامي. وللذكر نشير إلى أن التراث الإسلامي في إيطاليا متنوع سيما في مجال الآثار والنقائش والمخطوطات، وهو ما يتطلب مجهودات حثيثة من الطرفين، العربي والإيطالي، لإزاحة الستار عنه، لكن يبقى عائق الإيطالية، هذه اللغة المهمَلة من قِبل العرب، أحد العوائق المؤثرة، فتجاوز هذه النقيصة شرط لازم لتذليل المصاعب ورفع الغشاوة.

الكتاب: تاريخ العرب في كالابريا.
تأليف: أنطونيو ماوريسيو لوياكونو.
الناشر: منشورات شيتا ديل سولي (ريجيو كالابريا-إيطاليا) «باللغة الإيطالية».
سنة النشر: ٢٠١٨.
عدد الصفحات: ٢٢٩ص.

* أستاذ تونسي بجامعة روما

«تباطؤ النمو»
.. لجيورجوس كاليس

محمد السالمي *

ظهر مصطلح «تراجع النمو» أو «تباطؤ النمو» في المدارس الإيكولوجية وغيرها من المدارس غير التقليدية في الاقتصاد، كنقدٍ لفكرة النمو الاقتصادي. يدعُو هذا التوجُّه لانكماش الاقتصادات من خلال الحد من الإنتاج والاستهلاك، معتبرا إمكانية القيام بذلك دون التأثير على الرفاهية. ورغم قِدَم هذه الفكرة، فقد أعطتها الأدبيات الحديثة شكلًا جديدًا من خلال الجمع بين مختلف التخصصات والمدارس الفكرية في صياغة نقدها الأساسي ومقترحاتها حول علم الإيكولوجيا وتداخلاتها بين التخصصات. والهدف من هذا الكتاب هو تلخيص عناصرها الأساسية في شكل مختصر وموجز وبسيط. إنه ينطوي على انحسار جذري في مجال الاقتصاد البيئي، إضافة إلى تحديد أفكاره الرئيسية، يستكشف ما قد يحتاجه الاقتصاد للانتقال إلى وضع يسمح له بالازدهار دون نمو. حيث يرى كاليس في كتابه «تباطؤ النمو» أنَّ النمو الاقتصادي لم يعد مرغوبا فيه؛ فتكاليفه تفوق فوائده، ويدعو إلى تحول الاقتصادات بحيث تنتج وتستهلك أقل، بشكل مختلف وأفضل. جيورجوس كاليس يشغل منصب أستاذ الاقتصاد البيئي والإيكولوجيا السياسية في جامعة برشلونة.

وفي هذا الكتاب، الذي يتمحور في ستة فصول، يقدم جيورجوس كاليس دليلاً واضحًا وموجزًا للأفكار المركزية لنظرية النمو، ويستكشف ما قد يحتاجه الاقتصاد للانتقال إلى وضع يمكنه من الازدهار دون نمو. يدرس الكتاب كيف تتحدى المفاهيم السائدة للاقتصاد من خلال نظرية تراجع النمو وكيف تستمد الحركة من شبكة متعددة الأوجه من الأفكار عبر التخصصات لإلقاء ضوء جديد على العملية الاقتصادية. تتمُّ مناقشة الادعاءات المركزية لأدبيات النمو إلى جانب بعض الانتقادات الرئيسية لها. سواء كان الشخص يوافق أو لا يوافق على انتقاد النمو الاقتصادي، يوضح كاليس كيف أنه يثير أسئلة جوهرية حول طريقة عمل الرأسمالية التي لم يعد بوسعنا تجاهلها. كما يتضمن الكتاب فصلاً كاملاً يضع أسسَ فهم مختلف للاقتصاد باستخدام رؤى ومفاهيم من الأنثروبولوجيا واقتصاديات إيكولوجية ونسوية وماركسية، وأيضاً سياسية. حيث يتطرق إلى بعض الأسئلة الصعبة هناك؛ مثل: بناء فكرة الاقتصاد أو نظرية القيمة. في الفصل الثالث، يستخدم هذه المفاهيم لإعادة النظر في أصول ونتائج النمو الاقتصادي. ثم بعد ذلك في الفصلين الرابع والخامس يتحدث بإسهاب حول التراجع في النمو الاقتصادي.

ويُوضح كاليس في كتابه لماذا يعتقد أن علينا الابتعاد عن الحلول التكنوقراطية، والذي اقترحته العديد من الحركات البيئية حول الحلول السياسية. ويتفق كاليس مع الفرضية الأساسية أن البشر ليسوا منفصلين عن الطبيعة، لكنهم جزء منها، ولكنه يختلف معهم من حيث الحلول؛ حيث يرى أن التركيز على الحلول التقنية كوسيلة لمعالجة المشاكل البيئية هي الإشكالية بعينها. يمكن لهذا النهج التكنوقراطي للحداثيين البيئيين أن يتتبع جزئياً جذوره في تأطير خطاب التنمية المستدامة في التسعينيات، عندما تكون الفكرة أن الجميع فائز، والذي يعتبر أن النمو الاقتصادي متوافق مع الاستدامة البيئية بفضل التقدم التكنولوجي. ويقوم كاليس بتفكيك هذه الفكرة، باستخدام نظرية جيفونس "Jevon's Paradox" والتي ترى أنه كلما يزيد التقدم التكنولوجي، فإن كفاءة استخدام المورد تزيد؛ أي بمعنى تقليل الكمية اللازمة لأي استخدام، وهذا الذي تراه أغلب الحكومات والبيئيين. على سبيل المثال، إذا كانت الآلة تنتج ١٠٠ قطعة والذين يعملون في تشغيل الآلة ٥ عمال، ولكن بفضل التقدم التكنولوجي، فإن كفاءة الآلة تزداد أي أن إنتاجها يكون أكثر، والذين يعملون في تشغيل الآلة في تناقص.

ولكن ما يجهله الكثيرون أن معدل استهلاك هذا المنتج أو المورد يرتفع بسبب زيادة الطلب عليه، وعدم وجود أدلة على الفصل المطلق لشرح السبب كما يرى الكاتب. والواقع يشير إلى أنه قد تؤدي التطورات التكنولوجية إلى تأثيرات بيئية أكبر. يبتعد الكتاب عن الحجج التقنية والإدارية، ولكنه يناقش استخدام الأدوات الإيكولوجية السياسية لاتخاذ قرارات حول ما يعيد الوضع الأمثل إلى العالم الديمقراطي. على سبيل المثال، أن نكون صريحين حول ما إذا كانت إستراتيجياتنا البيئية متفقة مع قيمنا كمجتمع.

الصِّراع بين البيئة والنمو موجود على الدوام؛ فبالنسبة لـ«صُنَّاع القرار»، لا يمكن التشكيك في قيمة النمو: فالتعدين والحفر والبناء والتصنيع أمر ضروري لتوسيع الاقتصاد. وفي المقابل، يقف أصحاب البيئة والمجتمعات المحلية ضد هذا التوجه كونه أحادي الجانب. أدى صعود الخطاب السائد حول التنمية المستدامة إلى محو الوعد الجذري للبيئة. إن فكرة الاستدامة التي انبثقت عن مؤتمر قمة الأرض عام ١٩٩٢ قد عملت على تحييد الصراع بين البيئة والنمو وعدم تسييسه. ومنذ ذلك الحين، افترضت المفاوضات بين الحكومة والشركات ورجال البيئة البراغماتيين أن الأسواق والتكنولوجيات الجديدة يمكن أن تعزز في الوقت نفسه النمو الاقتصادي وتحمي النظم الطبيعية. لقد تم توجيه المشاكل البيئية إلى حد كبير إلى مجال التحسن

التقني.

ويدعو أصحاب نظرية النمو إلى «الخروج من الاقتصاد»، وهي دعوة للتخلي عن التفكير الاقتصادي التقليدي وبناء بدائل قابلة لتطبيق الرأسمالية. ومع ذلك، فإن اقتراح نماذج اقتصادية بديلة لا يكفي. يجب علينا أيضا أن نشكك في وجود مجال مستقل يسمى «الاقتصاد»؛ حيث يرى الكاتب أن «السوق الحرة» ليست عملية طبيعية، وإنما تم بناؤها من خلال التدخل الحكومي المتعمد. كما سيتطلب إعادة تسييس الاقتصاد تغييرًا مؤسسيًا صعبًا ليعيده إلى السيطرة الديمقراطية. يمتنع مؤيدو فك الارتباط عن تقديم أي خطة واحدة لتحل محل السوق «الحرة» اليوم المتمثلة في النمو. وهدفهم هو فتح مساحة مفاهيمية لتخيل وتشجيع العقود المستقبلية البديلة المتنوعة التي تشترك في أهداف تقليص التدفقات المادية للاقتصادات الثرية بطريقة عادلة ومنصفه، ومن المحتمل أن يؤدي خفض هذه التدفقات المادية إلى انخفاض الناتج المحلي الإجمالي. ومع ذلك، لا يعتبر الانكماش مرادفاً للكساد، وهي المصطلحات التي نستخدمها للنمو السلبي في اقتصاد النمو. وبدلاً من ذلك، ينطوي تراجع النمو على إعادة التفكير في تنظيم المجتمع الذي أشير إليه بعبارات مثل الحدود والرعاية.

وتتضمن مقترحات النمو بشكل عام حدودًا جماعية؛ مثل: الحدود القصوى للانبعاثات الكربونية، أو متطلبات الاحتياطي بنسبة ١٠٠٪ للبنوك. تُفهم هذه على أنها «قيود ذاتية». علاوة على ذلك، لا يمكن الحكم في الأنظمة الاجتماعية ذات الحجم المحدود والتعقيد إلا بشكل مباشر بدلاً من النخب التكنوقراطية التي تعمل نيابة عن الجماهير، كما أن الوقود الأحفوري والطاقة النووية خطران ليس فقط بسبب تلوثهما، ولكن أيضاً لأن المجتمع الذي يعتمد على الطاقة بشكل مكثف والذي يعتمد على أنظمة تكنولوجية معقدة بشكل متزايد يديرها البيروقراطيون والتكنوقراط، ستؤدي بنهاية المطاف إلى تفاوت في المساواة مع مرور الوقت وجعل التأثير السلبي على الديمقراطية.

يُمكن أن تصبح الرعاية السمة المميزة لاقتصاد يعتمد على الإنجاب، بدلاً من التوسُّع. ففي الاقتصاد الحالي، لا يزال عمل الرعاية يراعي الفوارق بين الجنسين ويتم تقييمه بأقل من قيمته ويدفع نحو

ظلم الاقتصاد الرسمي. تستدعي «نظرية تراجع النمو» التوزيع المتساوي لعمل الرعاية وإعادة تركيز المجتمع حوله؛ فالاقتصاد القائم على الرعاية يتطلب عمالة مكثفة لأن العمل البشري هو الذي يعطيه قيمته. وبالتالي لديها القدرة على تعويض البطالة المتصاعدة اليوم مع تعزيز مجتمع أكثر إنسانية. كما تطرق الكاتب إلى النفقات غير المنتجة للفائض الاجتماعي أي كيفية تخصيص الحضارات لفائضها، والنفقات التي تنفقها فوق ما هو ضروري لتلبية الاحتياجات البشرية الأساسية؛ حيث إنَّ هذا التوجه يمنحها طابعها الجماعي. خصص المصريون فائضهم إلى الأهرامات، وأوروبيو العصور الوسطى إلى الكنائس. في الحضارة الرأسمالية اليوم، مع تراكم الفائض واستثماره لإحداث مزيد من النمو، يتحول ديسكن إلى أعمال خصخصة للاستهلاك. وبما أن الحد من الاستهلاك المفرط وحده من شأنه أن يغذي المزيد من الادخار والاستثمار، فإن الدينامية تذهب لتقليص الفائض بشكل جذري ونشره في المجتمع حيث يبتكر المواطنون طرقًا جديدة غير ضارة لتوزيعها، وطرقا تساعد على بناء المعنى المجتمعي والجماعي.

وفي سياق آخر، تم التطرق هناك إلى مجموعة كبيرة من الأدلة التي توضح كيف يهدد النمو الرفاه البيئي والاجتماعي. إن استمرار النمو الاقتصادي يجعلنا أكثر احتمالا لتجاوز مساحة التشغيل الآمنة التي تحددها حدود الكوكب أو البيئة التي نقتات منها؛ مما يجعل الحياة أصعب للجميع. على الرغم من أن «النمو الأخضر» أصبح عبارة عن كلمة طنين في السنوات الأخيرة، إلا أنه لا يزال متناقضاً. إن تركيزها على تعزيز كفاءة الانتاج يخلق المفارقة؛ فانخفاض المتطلبات من الموارد يؤدي إلى انخفاض التكاليف من خلال منظومة العرض والطلب، ويكون هناك انتعاش في استهلاك الموارد، وهذا جزء من الديناميكية الأساسية للرأسمالية: زيادة الإنتاجية تحرر الموارد التي يتم استثمارها لتوفير المزيد من النمو. كما أن استمرار النمو الاقتصادي في الدول الثرية يثبت أنه ضار بالرفاهية. وكما ناقش الكاتب، فإن «سوء» الازدحام والجريمة وغير ذلك من الآثار الجانبية غير المرغوب فيها، تزداد بسرعة أو بنسبة أسرع من نمو الناتج المحلي الإجمالي. ومن هنا، فإن إعادة التوزيع، وليس النمو، هي ما يُحسن الرفاهية في الدول الغنية. علاوة على ذلك، وعلى الرغم من النمو الاقتصادي الكبير، فإن الناس في الولايات المتحدة ومعظم بلدان الغرب هم في أحسن الأحوال أكثر سعادة بشكل هامشي مما كانوا عليه في الخمسينيات. الأثرياء أكثر سعادة من الفقراء، لكن الثروة، في المجموع، لا تترجم إلى مستوى أعلى من السعادة لأن التطلعات تزداد أيضًا وتزداد المقارنات مع مستويات المعيشة الأعلى. لا يمكن للنمو إطالة الرغبة في السلع الموضعية؛ فقط إعادة التوزيع والقيم الجديدة يمكنها فعل ذلك.

يظل هذا الكتاب مصدراً قيِّماً للمهتمين بالاقتصاد البيئي؛ حيث يجمع بين المبررات والرؤى حول تباطؤ النمو في رواية متماسكة. وهي تتناول القضية المتجددة: إذا لم يتعلم المجتمع البشري تقليص بصمته المادية، فإن العواقب ستكون وخيمة، ومن هنا يأتي كاليس ليجيب كيف يمكن معالجة هذه المهمة؟ يتعامل الكاتب مع الانتقادات الموجهة «لتباطؤ النمو»، حيث كان واضحًا بشأن الحاجة إلى مزيد من العمل لتحسين الاتساق والجدوى.

- الكتاب: «تباطؤ النمو».
- المؤلف: جيورجوس كاليس.
- الناشر، Columbia University Press، بالإنجليزية - ٢٠١٨م.
- عدد الصفحات: ١٧٦ صفحة.

*** أكاديمي مغربي**

من لينين حتى بوتين: روسيا في الشرق الأدنى والأوسط
ألكسي فاسيلييف

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

بحُكم تجربته الطويلة في الشرق الأوسط والأدنى، والتي كرس لها ستين عاما من حياته؛ وذلك مذ كان طالبا في معهد موسكو للعلاقات الدولية، ونظرا لخبرته في المنطقة العربية، حيث درس في جامعة القاهرة، وتنقل بين العديد من الأقطار العربية بصفته مراسلا لجريدة البرافدا السوفيتية، ثمَّ أخيرا باعتباره مُستعرِبا ومُختصّا بالشأن الإفريقي، وأستاذا في الأكاديمية الروسية للعلوم، فإنَّ الدراسات التي يقدمها ألكسي فاسيلييف تعزِّز من مصداقيتها لدى القارئ، وتضاعف من أهميتها ضمن المجال الذي تعمل فيه. وفي رصيد هذا الأكاديمي نحو أربعين كتابا ومئات المقالات التي تُرجِمت إلى اثنتي عشرة لغة. ومن عناوين مؤلفاته: «الوهابية والدولة السعودية الأولى»، و«تاريخ المملكة العربية السعودية»، و«إفريقيا وتحديات القرن الحادي والعشرين»، و«جسر عبر الفوسفور»، و«مصر والمصريون».

ويعدُّ الكتاب الذي بين أيدينا «من لينين حتى بوتين.. روسيا في الشرق الأدنى والأوسط» محصلة جديدة لنصف قرن من الدراسة والبحث في منطقة الشرق الأدنى والأوسط، وهو تقييم يتوسَّل الحياد في مقارباته لقاضايا هاتين المنطقتين من العالم، ولا يتحيز لسياسات دولة بعينها، ومن بينها بلده روسيا التي تربطها علاقات ومصالح كبرى وإستراتيجية بالشرق عموما، بل نراه يفند الأخطاء التي اعترت رؤية موسكو في التعامل مع قضايا تلكم المنطقتين، ويكشف عن الخطل الذي أحاط بتوجهات بلاده في رسم إستراتيجياتها تجاه ذلك العالم الذي لطالما أطلق عليه تسمية العالم الثالث. الفترة الزمنية التي يغطيها الكتاب، من لينين قائد الثورة البلشفية إلى بوتين الرئيس الحالي لروسيا، تصل إلى نحو مائة عام، تبدلت فيها الأحوال وتغيرت طبيعة العلاقات التي حكمت روسيا بالمنطقة من الرومنسية التبشيرية إلى البراجماتية الصارمة - حسبما يصفها المؤلف.

ينظُر المؤلف في كتابه إلى عملية صنع القرار في الكريملين حول قضايا الشرق الأوسط على ضوء حقائق لم تكن معروفة من قبل تتعلق بأزمة السويس عام ١٩٥٦، والحروب العربية-الإسرائيلية في عامي ١٩٦٧ و١٩٧٣، وحرب الخليج عام ١٩٩١، والتدخل السوفيتي في أفغانستان وسياسة موسكو تجاه إسرائيل، إلى جانب الخطوات البراجماتية التي تقود روسيا الجديدة للحرب ضد الإرهاب، ناهيك عن الاحتلال الأمريكي للعراق، وأزمة الربيع العربي والأزمة السورية.

لقد وضع المؤلف نفسه أمام مهمة صعبة وطموحة نوعا ما، معربا عن أمله في تحقيق نجاح ولو جزئي في خوض غمار منطقة معقدة ومشتعلة، وإلقاء ضوء كاشف جديد على السياسة التي انتهجتها موسكو حيال المنطقة؛ سواء في زمنها السوفيتي الغارب أو في الوقت الراهن. ويشير المؤلف إلى مستويين من المعطيات التي يجب النظر إليهما عند تحليل العلاقات الروسية بالشرق الأوسط؛ أولهما يتعلق بالوضع الاجتماعي والسياسي الواقعي للشرق الأوسط، حيث تعمل وكالات الشؤون الخارجية الروسية، والثاني يتعلق بالهياكل السياسية البيروقراطية السوفيتية التي حدَّدت السياسة الخارجية للبلاد عبر تصميم أيديولوجي معين، ولا يزال التعالق مع هذه الهياكل ساريا حتى اليوم.

ثمة أيضا مستوى ثالث، لكنه أقل تأثيرا من سابقيه، ويتعلق بالكوادر التي شاركت في رسم أو تنفيذ السياسة الروسية مع كل ما يعتري الكادر البشري من معرفة وجهل وحماقة، وما يسيره من معتقدات وتحيزات ومصالح، وما يستولي عليه من شجاعة وجبن، وبكل ما يتلبسه من أوهام. وهناك أخيرا المستوى الرابع الذي يترك أثره الطبيعي على هذه الدراسة؛ أي حضور المؤلف نفسه الذي كان شاهد عيان على الأحداث التي يسوقها في كتابه، ومشاركا في بلورة بعضها.

يبدأ فاسيلييف ربط أفكاره بقبس من ذكرياته حين كان يعمل مراسلا لجريدة البرافدا السوفيتية في عُمان. وبدءاً من تلك المرحلة المبكرة لعمله كانت الأسئلة والشكوك تساوره عن الضرورة الفعلية للاتحاد السوفيتي من تواجده في الجزيرة العربية. فإن كانت الحال تُحتم على دولة كبيرة كالاتحاد السوفيتي مد يدها إلى مختلف أرجاء المعمورة، فما هو -إذن- الوضع المثالي للتواجد في جزيرة العرب والشرق الأوسط برمته؟ يقول في هذا السياق: «لا أعرف ما إذا كان عليّ أن أبتهج أو أحزن لما رأيته وسمعته وعلمت به. لم أعد عضوا رومنسيا في الكومسمول (اتحاد منظمات الشبيبة السوفيتية)، مستعدا لخدمة قضية النصر القادم للشيوعية على الكرة الأرضية، كما كُنت في شبابي. تتناوب الأسئلة الحادة والسوداء على رأسي: لماذا تُقبل الأفكار الشيوعية في أكثر المناطق تخلفا على الكوكب، مثل جمهورية لاوس التي قمت بزيارتها مؤخرا بينما في الدول المتقدمة كالمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية فيجب فرض الشيوعية بواسطة الدبابات؟ ما الذي نريده من هذا المكان ومن الشرق الأوسط بمجمله؟ النفط؟ ما لدينا منه يفيض عن الحاجة. خلق مجال اقتصادي؟ ليس لدينا شيء نتداوله معهم. بناء مجتمع اشتراكي ومن ثم مساعدته ونصرته؟ هل نربح أم نخسر من انتشار الشيوعية؟ ومن هم «نحن» أولاء؟ الاتحاد السوفيتي؟ روسيا؟ نخبة الحزب؟ الإنتلجنسيا الروسية؟ أجل، ربما لا تكون هذه الـ«نحن» أي روسيا بحاجة لأن يقوم الطيارون العسكريون البريطانيون والأمريكيون بالتحليق في سماء الجزيرة العربية؛ ذلك لأنهم لو فعلوا

ذلك سيكونون قادرين على الطيران إلينا بمعية قنبلة ذرية.. حسنا، ولكن ماذا عن الباقي؟» (ص:٨).

يُؤكد ألكسي فاسيلييف أن الاتحاد السوفيتي قد أضاع الكثير في علاقاته مع العالم العربي. وفي محاولة منه لطرح تقييم موضوعي لذلك، يستشهد بسلسلة من الحوارات التي أجراها مع دبلوماسيين وسفراء روس سابقين ممن وضعوا أيديهم على مجريات الأحداث. يقول أحد أولئك متذكرا: «لقد حال انغلاق المجتمع السوفيتي بيننا وبين تطوير العلاقات مع العالم العربي. عشرات الآلاف من المواطنين العرب تلقوا تعليمهم في الاتحاد السوفيتي، ومع ذلك فقد عانى الآلاف من المهاجرين السياسيين وغيرهم من الوافدين من البلدان العربية، عانوا من صعوبة الاستقرار في الاتحاد السوفيتي. كما لم يتمخّض التواصل الثقافي الروسي العربي عن شيء يذكر. ففي الوقت الذي لعب فيه مهاجرون من الدول العربية -ومن بينهم: أطباء ورجال أعمال وسياسيون ودبلوماسيون- دورا كبيرا في الولايات المتحدة، نجدهم عندنا يعملون في وكالات الأنباء تقنيين في مجال الترجمة والتدقيق اللغوي وليس أكثر من ذلك. لقد عمل المستشرقون العرب جنبا إلى جنب مع زملائهم الغربيين في الجامعات الأمريكية والبريطانية الكبرى، وكانوا يقومون بإعداد ونشر الأعمال العلمية على قدم المساواة، بينما لم يخرج لدينا كتابٌ قيّم واحد يتوّج مجهودا مشتركا بين خبير روسي ونظيره العربي، باستثناء القواميس».

ومن فصل في الكتاب إلى فصل آخر، يُتيح المؤلف لقارئه تتبُّع خط العلاقات التي ربطت الاتحاد السوفيتي، ومن بعده روسيا، بالشرق الأدنى والأوسط، رغم أن تفكير وسلوك القيادة السوفيتية كانا، ولفترة طويلة، مشوبين بأفكار تبشيرية تكفلت بتعكير أولوليات السياسة الخارجية وإعاقتها عن العمل، إضافة إلى أن الجمود في الدعاية الشيوعية شكل ضغطا على صنع القرار السياسي. أفضل مثال يدلل على الأجواء التي هيمنت على طبيعة تلك العلاقات ما جاء في الحديث الذي أجراه مؤلف الكتاب مع سفير الاتحاد السوفيتي في الجمهورية العربية اليمنية آنذاك أوليج بيريسبكين. يقول السفير: «لقد ساعدناهم على خلق الصورة التي تشبهنا والهياكل التي لدينا. أرسلنا لهم مجموعات كبيرة من خبرائنا الذين قاموا بتعليمهم أن يفعلوا بالضبط ما نرفضه الآن. وبشكل ما نقلنا لهم أفكارنا ومعها طريقة تفكيرنا. فإذا ما قام أحدهم بالإساءة إليك، أو إذا ما شعرت بأن ثمة من يفكر بالهجوم عليك، حينها لا ينبغي عليك

التفاوض مع الخصم، وإنما بادر بتسليح نفسك واستعد لصد الهجوم؛ الأمر الذي كُنا نفعله بأنفسنا دائما. فإن لاح في الأفق تهديد من قبل المملكة العربية السعودية (على سبيل المثال) كنا نستبق تأييدهم بالدبابات والطائرات بدل تقديم المشورة لبدء المفاوضات والتوصل إلى بعض التنازلات. وعلى هذا الأساس، نمت براعم لمغامرة خطيرة وغير محسوبة» (ص:٢٠٥).

يصوِّر المؤلف، وبقدر كبير من المكاشفة، كيفية اتخاذ القرارات على هامش السلطة السوفيتية وتقييم الأوضاع في الشرق العربي والحكم عليها. يقول في ذلك: «جاء اتخاذ القرارات في مجال السياسة الخارجية والاقتصاد والشؤون الداخلية الأخرى من قبل دائرة ضيقة جداً من الناس؛ وذلك من دون مناقشة مستفيضة وكافية، وأيضا من غير إثبات البراهين أو إبداء تقييمات موثوق بها. فغالبا ما تكون النوايا هي السائدة في اتخاذ القرارات. وبشكل عام، فإن كل مسألة، بما في ذلك مسألة الشرق الأوسط، يجري الحسم فيها توافقيا بين ثلاث جهات: وزارة الدفاع ووزارة الخارجية ولجنة أمن الدولة «كي. جي.بي».

إنَّ النزوع الفطري للبقاء ضمن الهيكلية البيروقراطية للحفاظ على الوضع الراهن، وملامسة الأفعال من سطحها، وإحلال الألفاظ محل الأفعال قد وصلت في النصف الثاني من السبعينيات إلى حد الجنون المطلق. يقول المؤلف: «ظاهريا، بدا كل شيء بمنظر لائق للجمهور. إنك تشاهد برنامج «الساعة» في التلفزة وتقبل كل ما يُعرض عليك، أكان الحديث عن المفاوضات السوفيتية اليمنية الجنوبية أو السوفيتية الأردنية. فكل ما يظهر على الشاشة: الكريملين، الأطقم المذهبة، القمصان البيضاء، البدلات الداكنة، كل شيء يظهرُ كما ينبغي عليه أن يكون. وبالمقابل فبالكاد يعلمُ أحدٌ أن لا بيرجنيف ولا تشيرنينكو كانا يعرفان مع من يجري التفاوض» (ص:٢٣٥).

لم يكن بوسع الكاتب التغاضي عن حدث الساعة في الشرق الأوسط وعلاقة روسيا المباشرة به، أي المسألة السورية والتدخل الروسي فيها، فخصص لها فصلا خاصا من كتابه. لماذا دعمت روسيا نظام الأسد ولم تنأَ بنفسها عن الخوض في منطقة متفجرة؟ ولكن، وبما أنها قد دفعت بقواتها إلى سوريا، فما هي أهدافها الحقيقية من وراء هذا التدخل الخطير؟ هذه عينة من الأسئلة التي ناقشها فاسيلييف في الفصل المتعلق بالمسألة السورية؛ حيث يستعرض الخطر الذي يتهدد روسيا من وراء هذا التدخل، بدءاً بالعبء المالي المكلف، مرورا بتعمق شروط هذا التدخل وانتهاء بظهور موجة من العداء الإرهابي المعادي لروسيا كردة فعل محتملة. ويقف الكاتب في هذا الفصل على حقيقة أن الوضع السوري والموازين على أرض الواقع لا تتيح لأي طرف أن يرفع راية النصر؛ إذ لا وجود لمعايير النصر في واقع رجراج، لا في سوريا ولا في الشرق الأوسط والأدنى برمته.

وختاما، يضع الكتاب الذي بين أيدينا السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي السابق، وروسيا التي خلفته، يضعها في ميزان التقييم النقدي ويطرحها على طاولة التشريح، معربا في الوقت نفسه عن الغموض والتناقض اللذين اكتنفا تلكم السياسة في مخاضات غير قليلة من تاريخها. ويعلن الكاتب صراحة أن السياسات الخارجية للبلدان المؤثرة في عالمنا المعاصر تجاه الشرق الأدنى والأوسط؛ سواء كانت السياسة الروسية، أو الأمريكية، أو الأوروبية، أو الصينية، فجميعها اتَّسمت بالحدية، واستبدلت بالمصالح المطامع، وتخلت عن التناغم الذي تستجوبه الحضارة وتحث عليه الأديان، لتسلك طريق الصدامات والآلام التي تنتج عنها.

- الكتاب: من لينين حتى بوتين.. روسيا في الشرق الأدنى والأوسط.
- المؤلف: ألكسي فاسيلييف.
- الناشر: تسنتربوليغراف، موسكو، بالروسية، ٢٠١٨م.
- عدد الصفحات: ٦٧٠ صفحة.

أكاديمية ومستعربة روسية

تركيا أردوغان والتحديات في الشرق الأوسط
ألبرتو غاسباريتتو

فاتنة نوفل *

الكتاب هو نتيجة لبحث كان موضوعه محددًا للغاية وهو السياسة الخارجية التركية. والاهتمام مُنصّب على سنوات حكم حزب العدالة والتنمية، الذي يُمكن اعتباره الفرع الحديث للحركة الإسلامية التركية المسماة (Milli Gorus) "وجهة النظر الوطنية" التي تأسست عام ١٩٦٩ من قبل نسمتين أربكان، رئيس الوزراء لعامي ١٩٩٦-١٩٩٧ ورئيس حزب (الرفاهية).

إثر الفوز في الانتخابات في المنافسة ضد الفصائل الجمهورية الممثلة في الحزب الجمهوري في تشرين الثاني ٢٠٠٢، بقيادة صاحب الكاريزما رجب طيب أردوغان، والذي قام بفرض أنواع من الإصلاحات في السياسة الداخلية، وقبل كل شيء الحَد من نفوذ الجيش، المحور الحقيقي للنظام السياسي الدستوري منذ تأسيس تركيا الحديثة عام ١٩٢٣، واعتماد خط إصلاحي معتدل -لإرضاء الاتحاد الأوروبي للانضمام إليه دون تحفظات تم وصفها كالطموح الكبير للحزب- بالجمع بين قيم التقاليد الدينية للإسلام التركي التي دفعت العلماء إلى تعريفه حزبًا إسلاميًا معتدلًا، وكذلك حزبا ليبراليا محافظا.

فمن ناحية موقعها الجيوسياسي، وتحليل السياسة الخارجية مع الشرق الأوسط، بمعنى العلاقات مع بعض البلدان الأكثر أهمية في الشرق الأوسط من خلال التركيز على بعض الأحداث الحاسمة للعلاقات الخارجية لتركيا وعلاقاتها بمركز صنع القرار ذي الصلة، اكتسبت تركيا موقعا هاما في الاستراتيجية السياسية، والاقتصادية والعسكرية، وهو العنصر الذي يُستغَّل عمدا وبوعي من قِبَل صناع القرار. فتركيا تقع بالضبط عند تقاطع ثلاث مناطق جيوسياسية: أوروبا، من خلال منطقة البلقان والتي سيطرت عليها لفترة أيام الإمبراطورية العثمانية، والتي تتشارك معها بسلسلة من الصراعات والتوترات؛ والقوقاز، أي بعض الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية السابقة؛ والشرق الأوسط، مهد العالم الإسلامي، والتي هي جزء ثقافي منه.

من وجهة النظر المعتمدة لتحليل وتفسير السياسة الشرق أوسطية لحزب العدالة والتنمية، أجريت الدراسة على نَهج معرفي لتحليل السياسة الخارجية، والتي منذ ستينيات القرن الماضي، اتخذت نهجها من تقاطع الانضباط ما بين السياسة الداخلية والعلاقات الدولية. العديد من المساهمات التي أغنت أدبيات المقاربة المعرفية لفهم السياسة الخارجية التركية من بينها دراسة للبريطاني مايكل بريشر الذي قام بتطوير النموذج الأكثر تنظيماً لفهم توجهات وصياغة القرارات في السياسة الخارجية. وهو عبارة عن تفاعل بين عاملي «البيئة»: التنفيذي، الذي يتكون من عشرة عوامل مادية، يمكن ملاحظتها مباشرة، إلى حد ما قابلة للقياس الكمي؛ وذلك النفسي المنبثق عن «أهلية الكفاءة» للحكومة، من خلال تأثير فلترة هذه العوامل، ومن «صور» فردية لصناع القرار، أي مجموعة المعتقدات التي لديهم للعالم من حولهم«عامل فكري». التفاعل بين هذين البُعدين يسمح للباحث الذي يطبق هذا النموذج الحصول على صورة دقيقة للمتغيرات الرئيسية المستقلة التي تتدخل في عملية صنع القرار، والتي تعتبر حاسمة بنظر أصحابها.

من أجل دراسة تصورات صانعي القرار، تم استخدام ما يسمى بـ«المصادر الأولية»، وهي عبارة عن مقالات في الصحف، والتصريحات المستقاة من مقابلات ووثائق موجودة على الموقع الرسمي للمؤسسة؛ ومع ذلك، كان من الضروري إلاسهام بـ«المصادر الثانية»، من أجل الإلمام بالمسألة بشكل أفضل من الناحية النظرية فيما يتعلق بالبعد الداخلي للبيئة، وإعادة البناء التاريخي للأحداث.

للوهلة الأولى، قد يميل المرء إلى الاعتقاد بأن الميل الإسلامي لحزب الحكومة يشكل الظروف المثالية لتحسين العلاقات مع الجيران المسلمين، والذين تم إبعادهم تاريخيا وفق الاتجاه العام الذي كان سائدا خلال النظام الجمهوري، حتى ثمانينيات القرن الماضي على الأقل، هذا الصوت يجذب العديد من الباحثين، كأولئك الذين ذهبوا إلى حد التأكيد على غلبة الطابع الإسلامي على السياسة الخارجية لحزب العدالة والتنمية. وتأكيدًا على هذا الخط التفسيري، وكنتيجة طبيعية، برز الاختلاف الواضح بشكل متزايد مع إسرائيل، والذي بلغ ذروته في أزمة العلاقات الثنائية عام ٢٠١٠ على إثر حادثة «مافي مرمرة» وقد طالبت تركيا في حينه بثلاثة شروط لإعادة العلاقات: الاعتذار الرسمي، وتعويض أهالي الضحايا ورفع الحصار عن قطاع غزة.

لفهم أفضل للظاهرة التي تمت دراستها في هذا الكتاب سيتم التعرض لعدد من القضايا خلال العقد الأول لحكم حزب العدالة والتنمية. فمن وجهه نظر الكاتب هناك ثلاث شخصيات هي الأكثر نفوذا: رجب طيب أردوغان رئيسا للحكومة عام ٢٠٠٣ ورئيسا للجمهورية من عام ٢٠١٤، وعبدالله غول وزيرا للخارجية حتى عام ٢٠٠٧ قبل أن يصبح رئيسًا للدولة، وأحمد داوود أوغلو مستشار أردوغان ووزيرا للخارجية منذ عام ٢٠٠٩ قبل أن يصبح عام ٢٠١٤ رئيسا للحكومة لتتم «إقالته»عام ٢٠١٦ لصالح بنالي يلدرمين وزير النقل في حكومات سابقة.

دراسة موقف صانعي القرار الأتراك في المرحلة السابقة للتدخل العسكري الأنجلو أمريكي في العراق في ربيع عام ٢٠٠٣ مثيرة للاهتمام بشكل خاص لسببين على الأقل: الأول: أن الانتخابات السياسية التي جرت في ٣ تشرين الثاني ٢٠٠٢ وحصول حزب العدالة والتنمية ذي النزعة الإسلامية المعتدلة بقيادة أردوغان على أغلبية ٣٤,٤٪ من الأصوات، ما مكنه من تشكيل حكومة ذات لون واحد تدير السلطة التنفيذية، وهذا يعتبر الاختبار الحقيقي الأول لقدرات الحزب. الثاني: إن الحرب ضد نظام صدام خلقت ضغطا شديدا على العلاقة الخاصة التي تربط تركيا بالولايات المتحدة الأمريكية (والتي حتى ذلك الحين كانت من المؤيدين لانضمام تركيا للاتحاد الأوروبي) مما يعتبر خطوة نحو صياغة جديدة في التوجه في السياسة

الخارجية التركية في السنوات المقبلة لإعادة تقييم العلاقات مع دول الجوار الإقليمي الرئيسية. هنا لم يتم تحليل حالة العلاقات مع النظام العراقي بل مع جميع الجهات الرئيسية الفاعلة في هذه القضية، من التحالف مع واشنطن إلى قضية الأكراد، والعلاقات مع الاتحاد الأوروبي إلى عبء العوامل الداخلية للنظام السياسي التركي. لذلك وبالتحديد، فإن القرار الذي تم تحليله هو التنازل للأمريكي عن جزء من الأراضي التركية في الجزء الجنوبي الشرقي للبلاد المتاخمة للأراضي العراقية للقيام بعمليات عسكرية موجهة ضد نظام صدام. لقد فُتحت مناقشات في البلاد على الرغم من الدوافع التي قدمتها الحكومة، لكن المكان الذي يتم فيه اتخاذ القرار الرسمي هو البرلمان. وهنا وباختصار، وجد الأتراك أن عليهم التوفيق بين الحاجات التي تمليها السياسة الخارجية وضرورات الساحة الداخلية ذات الطبيعة الاقتصادية. ومع ذلك، فعندما فهموا أن الحرب ستصبح حتمية، في آذار ٢٠٠٣، تم الاتفاق على إرسال قوات تركية إلى العراق.

الموقف الرسمي لصانعي القرار التركي منذ البداية هو الانتقاد لإسرائيل حول الحرب. لقد كانت هناك عبارات الإدانة تجاه حكومة إسرائيل في العديد من المواقف أهمها الحرب على قطاع غزة في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨ والذي طالبت فيه تركيا بسحب عضوية إسرائيل من الأمم المتحدة وعدم اعتبار منظمات حماس وحزب الله كمصدر للإرهاب الدولي بل مجرد حركات تحرير وطني. وفيما يتعلق بحادثة دافوس فقد ذهب معارضوها إلى القول: كان على أردوغان ألا يترك المنصة بل إجبار بيريس على القيام بذلك بدلاً منه، كذلك يرى المراقبون أن وراء سلوك أردوغان نية خالصة لكسب أصوات الناخبين وموافقة حزبه في ضوء الانتخابات المخطط لها في آذار ٢٠٠٩.

وفي الملف الإيراني نجد أنه وبالرغم من تطورالعلاقة الاقتصادية بين إيران وتركيا، يبقى البلدان غريمين إقليميين، سواء فيما يتعلق بالتأثير السياسي في الشرق الأوسط وكذلك فيما يتعلق بالهيمنة على الخطاب الديني والتأثير على الحركات الإسلامية في المنطقة. كما هو واضح من خلال الاتفاق النووي مع إيران، في هذه المرحلة هناك إعادة توجيه إستراتيجي لتركيا على الاستخدام السياسي للقضية الفلسطينية لسحبها من رعاية إيرانية حصرية، ما ينطوي على اتخاذ مسافة بعيدة من إسرائيل. تلعب السياسة الخارجية لحزب العدالة والتنمية دورًا مهمًا في الوساطة بين إيران والغرب بين عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٠، فمن ناحية الشرق الأوسط، الذي يجعلها بعيدة بشكل متزايد عن إسرائيل وبالتالي من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي، مع إدراك أصحاب القرار التركي أنّ العلاقات مع واشنطن لا يمكنهم التخلي عنها؛ فالمسألة التي يتشارك بها عضوا الناتو هو منع إيران من التقدم

في مسارها المزعوم نحو الحصول على السلاح النووي. لكن المستشار السابق للسياسة الخارجية وعند سؤاله عن التغير في توجه السياسة الخارجية التركية وأنها منخرطة بشكل متزايد في شؤون الشرق الأوسط، أجاب أن أولوية تركيا تظل أوروبا، لكن الهيكل الجديد للنظام الدولي بعد انتهاء الحرب الباردة يضع تركيا أمام تحديات تأتي من القوقاز ومن الشرق الأوسط، حيث لا تستطيع الدولة ألا تستجيب بشكل مباشر، متبنية سياسة خارجية متعددة الأبعاد.

أهمية العامل الاقتصادي داخل «أهلية الكفاءة» لصناع القرار التركي تظهر من جديد مع نشوب الأزمة السورية؛ فهناك صعوبة موضوعية مرتبطة بعوامل داخلية وخارجية متداخلة، كقضية الأكراد على وجه التحديد التي تثير ديناميكيات وقضايا تعبر الحدود ولا تعتبر بالضرورة تنتمي إلى البيئة الداخلية، فأنقرة تتمتع بأعلى درجة من الشرعية في المنطقة، ومع الربيع العربي تم خلط الأوراق بطريقة جذرية. ومن المعروف أنَّ خط الممارسة من قبل صناع القرار في الأشهر الأولى من الأزمة واندفاع أردوغان وأحمد داوود أوغلو نحو الجهود الدبلوماسية للحفاظ على الوضع الراهن (وهو دعوة الأسد مرارا إلى الاعتدال وحثه على القيام بإصلاحات سياسية يطلبها الشعب) يؤكد الخطر الكامن في تغيير النظام بشكل مفاجئ في دمشق والخوف من نشوء صراع من شأنه أن يلحق الضرر بالعلاقات الاقتصادية مع الجيران، وهي التي وصلت مع مرور الوقت إلى عملية مهمة للتكامل الاقتصادي، والتجاري والطاقة. من العلاقات التجارية المكثفة مع دول الخليج، والعلاقات القوية على نحو متزايد مع حكومة إقليم كردستان العراق التي تعتبر واحدة من أغنى مناطق النفط في المنطقة ما يسمح للبلاد بتنويع مصادر الإمدادات بدلا من الاعتماد على إيران وروسيا فقط. ومع ذلك، فإنها ترى في التحالف مع الأمريكي والذي تعرض لعدة هزات، ليعود بقوة ليحتل المكان الأول في الأهمية لدى صناع القرار، مع وجود تآكل تدريجي للعلاقات مع الأسد، وإدراكهم أن السلامة على الحدود، والتي من المحتمل أن تكون مهددة كنتجة لتصاعد الصراع السوري، والتي لا يمكن ضمانها إلا في إطارحلف الناتو؛ لتذهب تركيا في تشرين الأول وبعد فترة من التردد، إلى تبني قفزة سياسية، ومعارضة صريحة لنظام الأسد بالدعم العسكري للجيش السوري الحر واستضافة مؤتمر المجلس الوطني السوري الذي أنشئ حديثًا في الشهر نفسه على أراضيها، على الرغم من ضغط روسيا والصين في الاتجاه المعاكس، ودعم الحصار الاقتصادي الصادر عن الأمم المتحدة.

ومن هنا وفي ضوء التحليل الذي تم إجراؤه في هذا الكتاب، ما بين العوامل الداخلية خلال السنوات الماضية والتي هي اقتصادية بالإجمال، والنمو الاقتصادي القوي الذي شهدته البلاد خلال سنوات حكومة حزب العدالة والتنمية، نتج عن ذلك إمكانية تحويل نظرها إلى الشرق الأوسط والذي كان بعيدا عن السياسة الخارجية ليس فقط لأسباب أمنية بل واقتصادية كذلك.

القليل من رؤساء الوزراء كان لهم تأثير كبير على الحياة السياسية التركية مثل أردوغان. فقد مارس الهيمنة على السياسة الداخلية والخارجية لتركيا، مع أن الدستور التركي يمنح وزير الخارجية فقط مسؤولية السياسة الخارجية. لذلك يرجح الباحثون أن في مستقبل الرئيس التركي الميل للتغلب على الحد الدستوري لأداء وظائفه. على الجانب الخارجي، كان الخط العام أن ذهب إلى دعم المجموعات في الاحتجاجات ضد الأنظمة فيما يعرف ب«الربيع العربي»، وبخاصة دعم جماعة الإخوان المسلمين في مصر و سوريا. وبهذا انتقلت تركيا من سياسة «المشاكل المعدومة مع الجيران» إلى «العديد من المشاكل مع الجيران».

العنوان :تركيا أردوغان والتحديات في الشرق الاوسط: إيران، العراق، إسرائيل وسوريا.
المؤلف :ألبرتو غاسباريتو
دار النشر: كاروششي للنشر
بلد الاصدار: ايطاليا
لغة الكتاب: الايطالية
تاريخ الاصدار: آذار ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٢١٧

*** مترجمة عربية مقيمة في إيطاليا**

الحج في عصر الإمبراطوريات: تاريخٌ أوروبيٌّ من الحج إلى مكة لوك شانتر

سعيد بوكرامي *

في عصر الإمبراطوريات الاستعمارية كان يتوافد على الحج إلى مكة المكرمة كل سنة ومنذ القرن السابع، آلاف المسلمين لأداء المناسك في المدينتين المقدستين في الحجاز. ورغم الشروط الشاقة التي يتم فيها الحج إلا أنّه كان يحافظ على المظهر الوحدوي المتميز في العالم الإسلامي، لكن في المقابل يبدو الحج لأول وهلة أنه لم يحافظ إلا على علاقات بعيدة ومضطربة مع أوروبا التي تتصرف في أماكن حجيجها الخاصة بها في روما أو بيت المقدس أو سانت جاك وكأنها تتعامل مع إحدى مقاطعاتها الاستعمارية.

ومع ذلك، وفي ظل استعمار جزء كبير من العالم الإسلامي، فإن القوى الاستعمارية الأوروبية، بمبادرة منها أو مضطرة بحكم الأحداث، إلى تبني اختيار التدخل المتزايد في عمليات تنظيم الحج إلى مكة. خلال أكثر من قرن، أي ما بين ١٨٤٠ وبداية ١٩٦٠ قامت بريطانيا وفرنسا وهولندا وروسيا وإيطاليا، وإلى حد أقل، النمسا وإسبانيا، بإرسال سفن مستأجرة، على متنها موظفوها وجنبا إلى جنب الحجاج المسلمين. وكان هذا يستدعي الكثير من الأعمال والوظائف.

فضلا عن ذلك، من كان يتصور أنّ المستكشفين الأوروبيين قد تنكروا في شخصيات أمراء حلبيين، أو أطباء أفغانيين، وخاطروا بحياتهم في بعض الأحيان، لأجل ولوج الأماكن المقدسة المحظورة على الكفار.

اليوم نعلم أن أريستيد بريان أو بينيتو موسوليني، مثل السلاطين المماليك أو الخلفاء العثمانيين، قد اهتموا بشكل خاص بتنظيم قوافل الحج؟ هذه «المرحلة الاستعمارية» للحج هي ما يسعى هذا الكتاب الشيّق إلى تعقبها، عندما كانت الإمبراطوريات تهتم بشكل دقيق بنظافة الحج والتنافس على النفوذ في البحر الأحمر من توظيف الكثير من سفن الرحلات البحرية أو الجنود الحجاج الذين كانوا يعملون عيونا بعيدة لرصد أوضاع وتحولات المنطقة الخاضعة للحكم العثماني. يقول الكاتب إن القوى الاستعمارية لم تتوقف، خلال تلك الفترة، عن التجسس، جاعلة من الحج مجالا لمواجهات مؤقتة أو دائمة. إنّ تجاهل حدود الإمبراطورية، قد دفع الحجاج أنفسهم إلى المساهمة في خلق حج استعماري أي إلى عيش واقع رحلات عابرة للحدود، مما أثار المخاوف في عودة الأوروبي، وهذه الهواجس كانت تلقي دائما بظلالها على العلاقات من وجود مؤامرات تحاك ضد الطرفين المسلم والمسيحي.

وعلى مر السنين، كانت أوروبا تراقب تحول الحج إلى ظاهرة جماهيرية، عندما لم تكن تسعى إلى ابتكار أشكال جديدة من الحجيج، قبل أن تأتي الحقيقة الاستعمارية لإنهاء أحلام عظمة هذه «القوى المسلمة».

يقترح علينا كتاب لوك كانتور أن نفهم كيف اهتم، في القرنين التاسع عشر والعشرين، الأوروبيون تدريجيا بممارسة الحج (الحج إلى مكة المكرمة)، وكيف كانوا مشاركين في إعطاء الشكل الحالي للحج. الحج فرض مذكور في القرآن الكريم. يجب على المسلمين جميعهم القادرين على القيام بذلك، الحج مرة واحدة في حياتهم إلى مكة المكرمة، خلال الشهر الثاني عشر من التقويم القمري. لطالما كان الحج مركزياً للمجتمعات الإسلامية، سواء لأسباب سياسية أو اقتصادية. وقد كان رسميا في القرن التاسع عشر تحت الحكم العثماني لسببين: السلطان كان أيضا الخليفة وثانيا منطقة الحجاز كانت تحت وصاية إسطنبول. لكن «القوى الإسلامية» الرئيسية لم تكن تقبل بتدخلات القوى الأوروبية التي ترى فيها محاولة لفرض هيمنتها. وفي سياق هذا الصراع والتنافس أصبح الحج محط اهتمام العواصم الأوروبية، التي كانت تولي، فيما مضى، اهتماما محدودا بهذه المنطقة.

يستحضر الفصل الأول التواجد التدريجي والبطيء للأوروبيين في شبه الجزيرة العربية. فإذا كانوا قد عرفوا منطقة الحجاز منذ وقت طويل، حتى القرن التاسع عشر، فإن اهتمامهم بالمنطقة كان ضعيفا نسبياً. وقد دفعت بعثة بونابرت إلى مصر وتنمية التجارة عبر البحر الأحمر القوى الأوروبية إلى تثبيت التمثيل الدبلوماسي في جدة، وهو الميناء الرئيسي للحجاز. كان الأوروبيون، في بداية القرن التاسع عشر، يُظهرون أيضًا العلامات الأولى لعدم الثقة تجاه الحج ويريدون وضع إطار له. ومع ذلك، فإنّ هذا الترتيب معقد بسبب حقيقة أنّ المكيين كانوا يظهرون العداء للمحاولات الأوروبية للدخول إلى الأماكن المقدسة وأنّ العثمانيين يترددون في السماح للأوروبيين بالتدخل في الحج.

يتناول الفصلان الثاني والثالث السببين اللذين يدفعان الإمبراطوريات الاستعمارية إلى الحذر من الحج وفي الوقت نفسه الرغبة في السيطرة عليه: القضية الصحية والقومية الإسلامية. نجد هذين الموضوعين يترددان كلازمة متناقضة في تقارير الحج الأوروبية. إنّ تحسين وسائل النقل بين مكة المكرمة وبقية العالم الإسلامي يزيد بشكل ملحوظ عدد الحجاج الذين يزورون الأماكن المقدسة سنوياً. هذه التدفقات المتزايدة للحجيج تعمل على تسريع انتشار بعض الأمراض الوبائية مثل الكوليرا، التي لا تقضي على الحجاج، فقط في الحجاز ولكن أيضا على باقي سكان المستعمرات. مثل هذا الانتشار الوبائي يقلق المدن الأوروبية ويدفعها إلى عقد العديد من المؤتمرات الدولية. غير أنّ التدابير المقترحة تطبيقها بطيء جداً، بسبب التحفظات العديدة للعثمانيين، والحجاج أو بعض القوى الأوروبية. الأوروبيون يخشون أيضا خطرا ثانيا، هذه المرة ذو بعد متخيّل في تلك الآونة، ويتمثل في الوحدة الإسلامية التي يدعو إليها الحج. ومما يعزز هذا الخوف من الوحدة الإسلامية التي يمكن أن تؤدي إلى ثورة في الإمبراطوريات الإسلامية، كما حدث في الهند التي كانت مستعمرة بريطانية، ووقعت فيها ثورة السيبوي ما بين ١٨٥٧ و١٨٥٨ وفي أوروبا بواسطة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني

(١٨٧٩-١٩٠٩)، الذي لعب بهذه الورقة لمحاولة تعطيل فقدان العثمانيين لنفوذهم على الساحة الدولية.

إذا كان الحج هو بالتأكيد فترة زمنية مؤقتة يعيش فيها الحجاج شعورا بوحدة الأمة (المجتمع الإسلامي العالمي)، يبدو أنّ هذا الشعور لم يتحول في أي وقت إلى تمرد حقيقي. ولمواجهة وهم التهديد الناجم عن الوحدة الإسلامية، حاول الأوروبيون الدفاع عن أنفسهم كقوى جديرة بحماية المسلمين.

في الفصل الرابع يميط الكاتب اللثام عن الصعوبة التي واجهها الأوروبيون لتأكيد وجودهم في الحجاز؛ فقد كان الحظر المفروض على غير المسلمين الذين يدخلون مكة وكذا المشاعر المعادية لأوروبا يدفع القناصل للبقاء بعيدا في الحي الأوروبي في جدة. كما كانت تواجه دواوين القنصليات الأوروبية صعوبة في الحفاظ على نشاط قنصلي متواصل، لأنّ الدبلوماسيين المرشحين لهذه المناصب قليلون جدا وبعضهم يعيّن تحت ظروف خاصة وضغوط ملحة، بالإضافة إلى ذلك، فإن التنظيم الفعلي للحج يعد خارج صلاحياتها، أولا بسبب نقص الموارد البشرية أو المالية وثانيا لأن التنظيم هو في المقام الأول من اختصاص شرفاء مكة. هذه الحدود كلها لم تمنع الأوروبيين من الرغبة في التأطير الاداري، بكيفية أكثر أو أقل، للحجاج عند أرصفة النزول إلى جدة، كما يذكر الكاتب في الفصل الخامس. إن الإنجليز، من أجل تجنب إغضاب المسلمين في الهند، يسمحون للحجاج الهنود بتنظيم أنفسهم، و الفرنسيون حاولوا تنظيم الحجاج المغاربيين بطريقة مباشرة. لكن هذا التنظيم ليس ثابتا جداً ما دام هذا الجانب يقسم مهام الإدارات المختلفة المسؤولة عن المناطق الإسلامية. وبالتوازي مع هذه المحاولات المختلفة للإشراف الرسمي على الحج، اهتمت خطوط الشحن البحرية المختلفة بالسوق التجاري الهام المتمثل في نقل آلاف الحجاج وما قد يحتاجونه من موارد وما ستجلبه من أموال.

أمّا الفصل السادس، فيتحدث عما كان يمثله الصراع العالمي الأول من تحول في قضية الحج. أولاً، لأن الدولتين الإنجليزية والفرنسية نظمت عدة مواسم حجيج مرموقة: فالسفن التي تستأجرها الحكومات وترافقها القوات البحرية كانت تحمل المسلمين إلى الحجاز. هناك، تستقبل السلطات المكية الحجاج بمودة كبيرة كما تعبر القوى الاستعمارية عن استعدادها لتقديم خدماتها المتعددة. وهنا بدأ العثمانيون يفقدون السيطرة على الحجاز لصالح الهاشميين الذين كانوا المساهمين الرئيسيين في الانتفاضة العربية لعام ١٩١٦. وقد سمحت الانتفاضة في نهاية المطاف لهذه العائلة

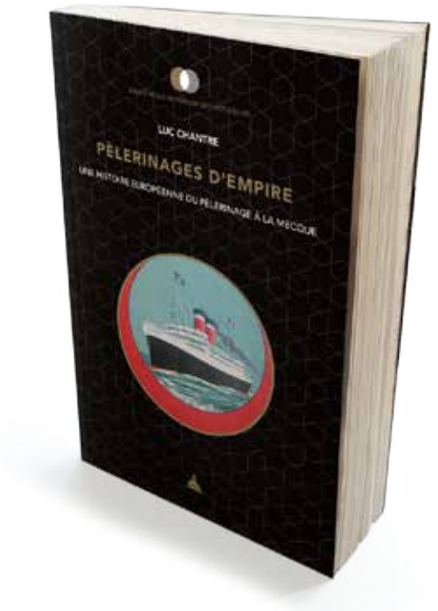

المكية بأن تطالب بلقب الملك. وهنا سيخصص الإنجليز دعمًا كبيرا للملك الجديد بينما سيستبعد الفرنسيون عن صاحب السيادة الذي يطالب بتشكيل اتحاد عربي عظيم من الجزيرة العربية إلى سوريا، على حساب الطموحات الفرنسية في سوريا ولبنان. إلا أن الملكية الهاشمية ستواجه خصومها الوهابيين، الذين التفوا حول ابن سعود وساندوه لتأسيس مملكة جديدة (الفصل ٧). وقد تمكن هذا الأخير من فرض نفوذه بسرعة على الأماكن المقدسة في عام ١٩٢٥.

تركز الفصول ٨ و٩ و١٠ على الحج خلال فترة ما بين الحربين. خلال العشرين سنة التي تفصل الصراعين العالميين، ستعرف تطورات مهمة: فالحجاج المغاربيون سيصبحون أقل عددا، في حين أنّ الحجاج المعوزين كانوا كثيرين جداً خلال القرن التاسع عشر، بينما حجاج القرن العشرين هم في الغالب من المسلمين الأثرياء، كانوا يستغلون الحج لزيارة الشرق الأوسط. يشجع هذا التطور أيضاً القوى الأوروبية على تطوير تنظيم نوع من الحج الراقي، الموروث من الحرب العالمية الأولى. وكان على هؤلاء الحجاج الميسورين أن يمجدوا ويعظموا القوى الاستعمارية لدى السلطات المكلفة بالحج. خلال فترة ما بين الحربين، في هذه الفترة أيضا قامت المملكة السعودية أيضاً بتحديث الحج تحديثا تدريجيا ودقيقا، وذلك بإدخال السيارات لنقل الحجاج بين مكة والمدينة أو بين جدة ومكة وتوفير إقامة لائقة.

تميّز النزاع العالمي الثاني بتقلص عدد الحجاج (الفصل١١). وقد حاولت القوى الأوروبية إعادة الاتصال بممارسات الحرب العظمى والرحلات الرسمية، لكنها لم تنجح في ذلك كثيرا. تمثل نهاية الصراع العالمي تغييرات جذرية في العمليات التنظيمية للحج (الفصلان ١٢ و ١٣). كما زادت اتفاقية التجارة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية في عام ١٩٤٥ بشكل كبير من عمليات استخراج الذهب الأسود والإيرادات المتعلقة بذلك. ومع دخول هذه الأموال الجديدة، ستبدأ المملكة السعودية بتحديث جدة والأماكن المقدسة. كما ستسمح تجارة البترول بتطوير سياسة التأثير في العالم العربي والإسلامي، بما في ذلك شمال إفريقيا وغرب إفريقيا. كما أصبح الحج وسيلة لاحتجاج القوى الاستعمارية، التي بدأت تتخلى تدريجيا عن أية محاولة لتأطير هذا الحج الذي واصل الانفلات منها.

من المؤسف أن المؤلف يمر بسرعة على بعض الأسئلة. على سبيل المثال ، كان من الممكن تقدير دراسة بيزوغرافية للسلك القنصلي أو دراسة أكثر تفصيلاً لشركات الشحن المسؤولة عن نقل الحجاج. يمكن للمرء أن يجد أخيراً بعض الخيارات التحريرية التي من المحتمل أن تزعج القراء الجدد على الثقافة العربية الإسلامية. هذه الملاحظة الصغيرة لا يجب أن تخفي أهمية الكتاب الذي بحث في جوانب غير مطروقة كثيرا حول ما يمثله الحج الإمبراطوري؛ لأنّ ما يعرضه الكتاب من أسئلة سياسية واقتصادية ودبلوماسية وأيديولوجية التي يسألها عادة الأوروبيون عن الحج هو بمثابة منجم تاريخي لكل دارس أو مهتم. وتجدر الإشارة في الأخير إلى أنّ المؤرخ نجح، رغم تعقيدات الموضوع وحساسيته، في إنتاج دراسة غنية ومحفزة على دراسة مراحل أخرى من فترات الحج. إنّ اقتراح تاريخ أوروبي للحج يدفع إلى العمل ومقارنة العديد من علاقات الإمبراطوريات الاستعمارية بعمليات الحج المعقدة والمتنوعة للغاية. لكن ينبغي أن تكون دراسة مقارنة متصلة بخمس إمبراطوريات هي الإنجليزية والفرنسية والروسية والهولندية والإيطالية، والرجوع بالضرورة إلى معالجة بعض المصادر الحجازية. وفي هذا النطاق، يعتبر الكتاب مثالا جيدا للتاريخ المتصل بالحج والعلاقات الدولية.

الكتاب: الحج في عصر الإمبراطوريات: تاريخٌ أوروبيٌّ من الحج إلى مكة
الكاتب: لوك شانتر
الناشر: منشورات جامعة السوربون. فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٨
اللغة: الفرنسية
عدد الصفحات: ٥٠٠ ص

*** كاتب مغربي**

سلسلة الدراسات الإباضية والعمانية: المجلدان الثالث والرابع

فاطمة بنت ناصر *

المؤتمر الأول في أوروبا لمناقشة الإباضية حمل عنوان: «الإباضية ودراساتها وسلطنة عمان»، حيث انقسمت فيه أوراق العمل إلى قسمين: الأول: تاريخ الإباضية؛ والذي يتناول تاريخ الإباضية ودور الدراسات الاستشراقية وأبرز رجالات هذا المذهب بالإضافة إلى وجهة نظر الإباضية في بعض القضايا الخلافية كصفات الله. كما تم استعراض كيف تكونت الهوية الإباضية وتطورت شرائع الإباضية على ضوء هذا التشكل.

والمتتبع للتاريخ الإباضي، يجد أن بدايته تعود للنصف الأول من الهجرة بعد حادثة الفتنة، ورفضهم التحكيم بين معاوية وعلي -كرم الله وجهه- وبعدها خرجُوا للبصرة، وتمت ملاحقتهم، فتفرقت مجموعاتهم للشرق وللغرب. غير أن عُمان تعتبر حاضرة الإباضيين الأكثر ازدهاراً، والتي أسهمت بفضل تراثها البحري في نشر الإباضية في الساحل الإفريقي.

ومن تلك النشأة في المدينة وصولاً للعراق، ومن بعدها إلى عُمان التي يصفها (Wilkinson)، بالبيضة «التي أتت من المدينة، وفقست في البصرة، وطارت إلى عُمان». وكان لهذه الرحلة دور كبير في تشكيل الفكر الإباضي. وكغيره من المدارس الإسلامية، أثار المذهب الإباضي شغف المستشرقين، خاصة الإنجليز والأمريكان. وقد تطورت هذه الدراسات بتطور علوم الاستشراق بشكل عام؛ ففي البدء كانت هناك نظرة سطحية صنفت الإباضيين ببساطة كأحد فرق الخوارج المتشددة، غير أن هذه الدراسات ما لبثت أن تعمقت لتفهم الفكر الإباضي وتغير الكثير من تعاميمها السابقة؛ وذلك باطلاعهم على مصادر جديدة لم يطلعوا عليها في البدايات كالمؤلفات الصادرة من زنجبار والجزائر وعُمان لأقلام أعلام هذا المذهب كنور الدين السالمي ومحمد يوسف أطفيش.

ورغم الامتداد الجغرافي للإباضية من أقصى المغرب العربي وحتى عُمان، كان التواصل الفكري حاضراً غير أن الاستعمار الغربي الإمبريالي أسهم بشكل كبير في عزل أوصال هذا المذهب، وفرض العزلة عليه. وقد تنبَّه أتباع المذهب في المغرب العربي إلى ضرورة وجود مطبعة لطباعة الفكر الإباضي وسمُّوها (المطبعة البارونية) كان مقرها في القاهرة. ومن المسائل المعروفة والخلافية بين المذهب الإباضي ومذهب السنة مسألة «الذات الإلهية وصفات الله»؛ حيث هناك تلاقٍ بين الإباضية والمعتزلة والشيعة حول هذه المسألة أكثر من السُّنة.

القسم الثاني: حاضر الإباضية؛ ويتطرق هذا القسم إلى الواقع الإباضي الحديث، والأدوار التي لعبها في تشكيل الحاضر العُماني منذ النهضة المباركة. كما يستعرض كيف تعرضت المؤلفات الإباضية الحديثة لمسألة الخوارج. وتعد (الخوارج) تهمة ملازمة للإباضيين، ولا تزال مؤلفاتهم تتعرض لها بالنفي؛ حيث يُصر الإباضيون على أنَّ هناك فرقا جوهريا بينهم وبين الخوارج وهو رفضهم (الاستعراض: القتل للمخالفين فكريًّا أو القتل الأيديولوجي)، ولعلَّ أبرز المؤلفات التفصيلية في هذا الشأن كتاب «الخوارج والحقيقة الغائبة» لناصر بن سليمان السابعي، الذي فند فيه التهم، وأثبت بالأدلة أن الخوارج عدة فرق، والإباضية كان يُطلق عليهم تاريخاً «المُحكّمة» و«الحرورية». أما الخوارج، فقد كان يطلق لفظًا على فرق متشددة؛ منها: الأزارقة. هذا الكتاب صدر في ١٩٩٩، وفي التسعينيات ومنتصف الثمانينيات كان النشاط الفكري الإباضي كبيراً بسبب المناكفات الوهابية، فكانت هناك ردود فعل انعكست على النشاط الإباضي الداخلي من محاضرات وكتب وغيرها، وكذلك الاستعانة بمؤلفات غير إباضية ككتاب محمد بن علي الصابوني «قبس من نور القرآن»، وهو أحد أبرز علماء السُّنة. أما الدولة، فإنها ترعى كافة الأطياف المذهبية، وتفرض على الجميع بمن فيهم الإباضية عدم اتخاذ الأنشطة السرية والإعلان عنها قبل الشروع بها.

المجلد الرابع: علم الكلام الإباضي (إعادة قراءة المصادر وبحوث المتخصصين)

يتضمَّن هذا المجلد معظم الأوراق البحثية التي قُدِّمت في مؤتمر علم الكلام الإباضي، والذي عُقد في جامعة (Naples) الإيطالية في العام ٢٠١٢. وهدف المؤتمر إلى تناول قضايا متنوعة وجوانب مختلفة لعلم الكلام الإباضي، وما زاد ثراء البحوث المقدمة هو تعدُّد مناهج البحث والتقصي. وقد تم تقسيم المجلد إلى أربعة أقسام؛ سنستعرض أهم ما جاء فيها:

١- محاولة تقييم المنظور التاريخي للإباضية:

يستعرض كل باحث في هذا القسم جوانب تتعلق بتاريخ الإباضية؛ مثل: التقاطع بين الإباضية والمعتزلة كونهما من الحركات الأولى في الإسلام التي انتهكت مسار المعارضة المعتدلة والتاريخ الإباضي. لعل أهم ما جاء هنا هو التقارب الكبير بين الفرقتين؛ حيث إنَّ كلا منهما نشأ في البصرة في الفترة الأموية، إلا أن الإباضية باعتبارها فرقة رافضة للتحكيم، فقد خرجت من رحم فترة أقدم من المعتزلة. الفرقتان قد تجيزان الخروج على

الحاكم إن كان جائراً، إلا أنهما ينبذان استخدام العنف. وعلى عكس المعتزلة وغيرهم من الفرق التي ظهرت ونشرت أفكارها بشكل علني، فإن الإباضية ولظروف نشأتها اعتمدت على السرية، إلا أن هذه السرية زالت أو (هكذا يظن) بعد تطور المذهب واكتمال تأسيسه في القرن الثاني للهجرة، وتحولت فيها الإباضية من حركة سرية إلى فرقة كلامية حسب ما يراه الباحث رضوان السيد مثلاً. وهناك من لا يتفق معه ويرى أن الإباضية فرقة لا تعتمد على إشهار أفكارها على عكس المعتزلة الذين كانوا أكثر جهراً وعلانية.

أمَّا على صعيد تعامل الإباضية في عُمان مع المناخ الإسلامي السياسي في عهد الأمويين والعباسيين، فقد استمرُّوا في حيادهم ورفضهم للخلفاء، ولكن دون مواجهة حربية. كما أنهم لم يساندوا أية فرقة من الخوارج. كانوا -حسب كلام الباحث Josef Van Ess- يريدون مزاولة تجارتهم والعيش بسلام؛ فحين تقاتل الناس في البصرة ضد المنصور لم يساند الإباضية أي طرف، بل هجروا البصرة وغادروها.

٢- إعادة قراءة المصادر الإباضية:

في هذا القسم، استعراض ودراسة لعدد من مؤلفات شيوخ إباضية عُمان والمغرب العربي؛ وأهمها كتاب ابن سلام الإباضي، وكتاب السيرة جامع أبي قحطان بن خالد. أما المؤلفات الإباضية من الشمال الإفريقي؛ فمنها كتاب «الدليل والبرهان» للوارجلاني، وكتاب «الموجز» لأبي عمار عبدالكافي، و«سير مشائخ جبل نفوسه» للبغطوري... وغيرها من المؤلفات.

٣- الخطاب الكلامي لدى الإباضية:

تَنَاول هذا القسم عدة مسائل كلامية؛ أهمها: تعاطي الإباضية مع مسألة خلق القرآن، ومفهوم الخطيئة ومسألة التكليف وعلاقة الجهاد بفهوم الخارجية (نسبة للخوارج)، إضافة إلى موقف الإباضية من العبودية وإلغائها وتجريمها اللاحق، وهذا بحث شيق إلا أنه استند إلى ما قاله ابن إطفيش فقط، ولعلنا في المستقبل نرى

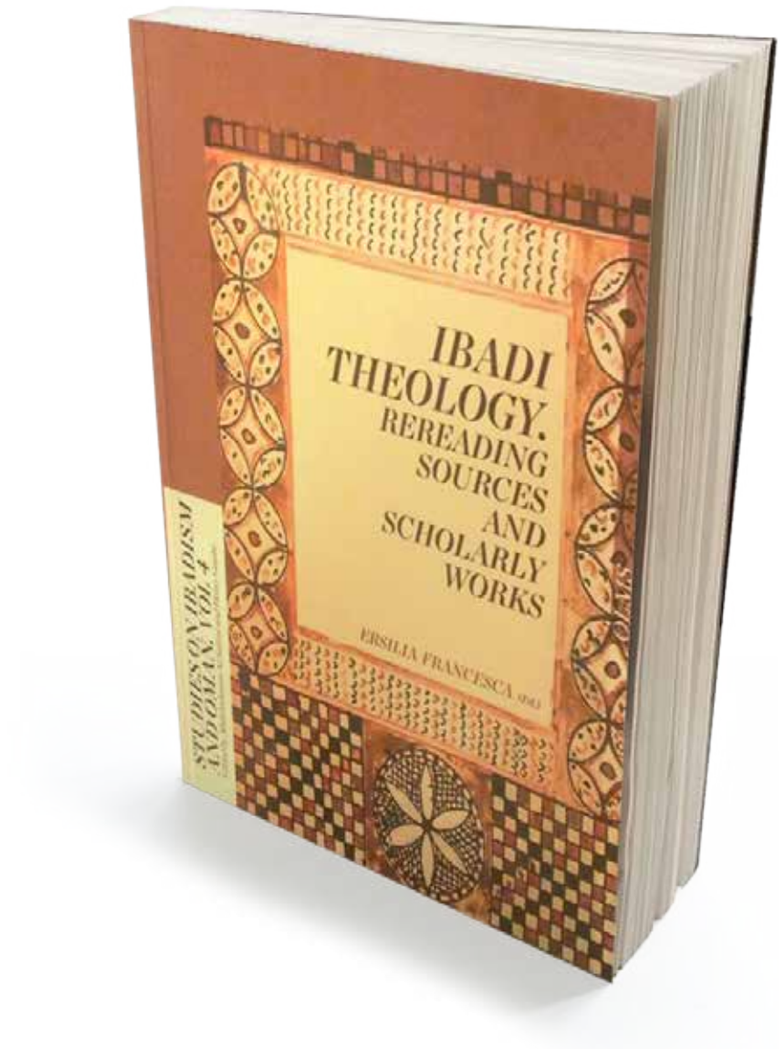

دراسة مماثلة تشتغل على الفكر الإباضي العُماني ووجهة نظره حول هذه القضية. أما بخصوص التكليف والقدرة والاختيار، فيقول مُعز دريدي، إنَّ الإباضيين خاصة في القرن الثاني للهجرة لم ينشغلوا بالتعمق في هذه المسائل، وهو يعتقد أن الإباضيين ركزوا بشكل كبير في التأكيد على قدرة الله الكلية، وترسيخ هذه الفكرة في شتى المجالات، خاصة في محدودية حرية الإنسان أمام هذه القدرة.

٤- علم الكلام الإباضي المعاصر:

وفيه، تمَّ استعراض موقف الإباضية من مسألة رؤية الله، إضافة لموضوع القيم الإباضية والإسلام المعاصر والفكر الإباضي المعاصر في شمال إفريقيا، وإسهامات فكر الشيخ محمد يوسف أطفيش في تطور علم الكلام الإباضي، وبحث في مخطوطة غير منشورة لابن أطفيش تسمى «مبحث الفرق»، ودور الإمام السالمي في علم الكلام، وبحث في كتابه «مشارق أنوار العقول».

المجلد الثالث: عن الإباضية (مُؤتمر جامعة Aristotle - اليونان ٢٠٠٩).

* كاتبة ومترجمة عُمانية

توحيد العالم: فقدان تعدد المعنى والتنوع
توماس باور

رضوان ضاوي *

استقبل القراء والمتخصصون والنقاد في العالم الناطق بالألمانية والعالم العربي كتابات المستعرب الألماني باور بكثير من الاهتمام، بما في ذلك كتابه المهم «ثقافة الالتباس. تاريخ آخر للإسلام» (٢٠١١). في كتابه «توحيد العالم: عن فقدان تعدد المعنى والاختلاف»، يعرض الكاتب تأمله النقدي الجديد في معاني الغموض والالتباس، وكيف تم القضاء على الغموض بشكل متزايد منذ الحداثة الأوروبية. ولكي يبرر الباحث الألماني أطروحته، تناول أمثلة كثيرة من مجالات اجتماعية وسياسية ودينية وفنية متعددة. ويمكن اعتبار هذا الكتاب مدخلاً علميا إلى مسألة الغموض، ويستهدف بطريقة سلسلة وبسيطة شريحة واسعة من القراء بمختلف اهتماماتهم، كما يحتوي على معلومات تهم الباحثين المهتمين بالعلوم.

إذاً يفتح هذا الكتاب مجالاً معرفيا للوصول إلى البحوث الحالية في مجال التعددية الثقافية والتنوع ويشجع على تحمل الغموض والتناقضات، فكتاب «توحيد العالم: عن فقدان تعدد المعنى والتنوع» يحفز بالتأكيد هذه العملية، ويعد بمعرفة مميزة ومنصفة لهذا المجال البحثي الفتي في مجال الدراسات المقارنة والعلوم الإنسانية. وأطروحة توماس الجديدة تزيل عدم قدرتنا على التعامل مع التناقضات، وتساعد على تحمل التقلبات، والسماح للمشاعر المتناقضة بالظهور: فالالتباس والغموض والتناقض يعني كيفية استعصاء الأشياء والأشخاص على التصنيف والوضوح. فانطلاقاً من الفهرس يمكن أن ننتبه إلى أهمية مواضيع هذا الكتاب وأهم القضايا التي يدرسها، وهي قضايا ومواضيع تنتمي إلى مجالات مختلفة من حيث غموضها أو الحد من غموضها. هذا الفهرس يتيح إمكانية الجمع بين مواد معرفية وفكرية مشتركة ومتقاطعة: فهناك حديث عن عصر التنوع والبحث فيه عن التفرد، وعن ثقافات الغموض والالتباس، وعن الالتباس في الأديان بين الأصولية واللامبالاة، وعن الأصالة في الفن والموسيقى، إضافة إلى العديد من المواضيع ذات الصلة. ويختتم هذا الكتاب بملحق مع المراجع والمصادر وتصنيف قصير للسيرة الذاتية والعلمية للمؤلف.

يقول باور إن استعمال مفهوم «الالتباس» أو «الغموض» في اللغة الألمانية نادر مقارنة مع استعماله في الفرنسية أو الإنجليزية، فهي من الكلمات الشائعة في هاتين اللغتين، لكن هذا لا يعني أن المصطلح يمكن التخلي عنه في الألمانية باعتباره مفهوماً يدل في تفاعله مع البشر على كل ظواهر التعدد واللاتحديد والغموض. ويكون الالتباس في الغالب لا إرادياً، لكنه يكون أيضا إراديا كما في الأدب الذي يعبر فيه الكاتب عن صور مليئة بالمعاني المتعددة وبالغموض والالتباس، أو في الاتفاقيات السياسية التي يعمد فيها الساسة إلى إبرام معاهدات لا تحيل على معنى موحد، وذلك من أجل التوصل إلى مكسب سياسي ما.

يصنف باور التفرد والدقة ضد الحرية الدينية، أما الغموض الذي يخفف -في تقليد الحداثة الأوروبية- من الصرامة فيقدم دائمًا فرصة لمزيد من التسامح مع الالتباس. على سبيل المثال فيما يتعلق بموقف الإسلام من النساء هناك قدر كبير من الغموض والتسامح مع الغموض حتى القرن العشرين. كما أن هناك اعتقادا أساسيا في الإسلام بأن الناس يمكن أن يفسروا «كلمة الله» بشكل مختلف، إضافة إلى التسامح المرتبط بقراءات مختلفة ، وهو ما يعترض عليه اليوم بعض القادة الدينيين بدهاء، وهذا راجع، حسب باور، إلى أنه بالنسبة لكل من الديانات المسيحية والإسلامية، ينحسر التدين الحقيقي، ولكن في الوقت نفسه فإن الأصولية الصارمة التي تتظاهر بأنها «الحقيقة» نفسها في ازدياد. بالإضافة إلى التنوع البيولوجي واللغات والأديان، يعتبر توماس باور الموسيقى والفن التشكيلي نموذجاً حيّاً لمعالجة إشكالية الغموض وتوحيد العالم والتعددية الثقافية؛ فالفن والموسيقى - تقليديا - هما أكثر المجالات الإبداعية التي فتحت مساحات واسعة وممتدة للغموض. وما ينطبق على التنوع البيولوجي وكذلك على الإنجازات الثقافية للشعب، ومع انخفاض عدد الأنواع الحيوانية والنباتية بشكل ملحوظ في العقود الأخيرة، كان هناك انخفاض مماثل في لغات الناس، حيث تم تهديد ثلث اللغات «بالانقراض».

كما يعكس هذا الكتاب أيضا الحالة الراهنة للمجتمع الألماني، فإذا كان السياسيون قلقين من أن يكونوا «أصليين» بقدر الإمكان، فإن هذا الأمر لا يترك مجالًا للعمل السياسي الفعلي في مجتمع ديمقراطي، فالتضييق على الاحتمالات مرتبط بصرامة الحقيقة والوضوح، ولها علاقة بتراكم البضائع في المجتمع الرأسمالي. يؤكد باور أن المجال الحقيقي للغموض هو السياسة. فهي تجمع بين العديد من الدوافع المتعارضة التي يمكن أن توحد في الغالب بالقوة رغم أن «الإحجام عن تحمل الغموض» يساهم في تآكل الديمقراطية.

في ألمانيا ومدينة مونستر تحديداً، يرى باور كنزاً خاصاً من التنوع الثقافي، أي ما كان موجوداً في القاهرة في القرن الخامس عشر، وهو الأمر الطبيعي للعالم: أشخاص من الديانات الأخرى، والأصول الأخرى، يرتدون الملابس والأزياء الأخرى، يتحدثون لغات مختلفة، وهذا هو الشيء الأكثر طبيعية، وهو ما ينطبق على معظم دول العالم. وحتى القرن العشرين كان لدى ألمانيا «العمال الضيوف»، فكانت مدن مثل فرانكفورت مليئة بالتنوع الثقافي، وهو تنوع لم تعرفه ألمانيا في تاريخها من قبل، ولا في أي مكان آخر في العالم. لكن هذا التنوع بدأ في إزعاج الناس فأصبح التفاعل مع «التسامح مع الالتباس» يسري من خلال هذه الدراسة على مختلف المجالات مثل الدين والفن والسياسة. ويضيف باور أن مفهوم الأصالة نفسه - بمعنى «أن يكون المرء نفسه» - هو رسمي جدا وبالتالي فهو غامض تماما: «إنه أمر واعد للغاية لأنه يمكن فهمه بطرق عديدة ومختلفة». وبخصوص وسائل الإعلام وما تحاول أن تصوره لنا من توافر مظاهر التعدد في ألمانيا والعالم يصرح باور أنه توجد مئات البرامج الحوارية عن الإسلام واللاجئين، ولكن على حد علمه، لم يكن هناك موضوع واحد كان موضوعه على سبيل المثال: هل توجد أية بدائل للرأسمالية؟». غير أنه تحدث أيضًا عمّا وصفه بـ «لامبالاة» المجتمعات الحديثة في وقت متأخر: هل يمكن لهذا «اللامبالاة» أن تؤثر على التعددية، وببساطة على الدعوة إلى «التعددية» باعتبارها إنجازًا حضاريًا.

تقول المتخصصة في الإعلام نينا هاجن Nina Hagen إن تنوع برامج التلفزيون لا تدل بالضرورة على تصاعد التنوع في المحتوى: فالبرامج الحوارية أو المسلسلات البوليسية قامت منذ ١٩٧٨ بزحزحة توقيت البرامج الثقافية إلى منتصف الليل أو إلى قناة منعزلة. ينطلق باور من معطى وجود مئات البرامج الإعلامية التي تتناول موضوع التنوع الثقافي والهوياتي، تماماً مثل التنوع الهائل في المنتوجات الاستهلاكية في مجتمع الاستهلاك الرأسمالي. لكن باور يطرح سؤالا مهما عما إذا كنا فعلاً نعيش عصر التنوع في زمن انقراض أنواع كثيرة من النباتات والطيور؟ فالمتخصصون في البيولوجيا يخشون من أن كل خامس نوع معروف سيعرف طريقه إلى الانقراض في أفق ٢٠٣٠، وفي الطبيعة لن يرجع أي شيء إلى أصله. هناك خسارة جمالية بفقدان حيوانات أليفة لظروف طبيعية بيئية لها علاقة بمجال العيش. ومنظمات مثل «جمعية الحفاظ على أنواع الحيوانات الأليفة الكبيرة في السن المهددة» تدق ناقوس الخطر. كما أن الطعام النباتي المفترض أنه طبيعي أصبح معدلا جينيا. وحسب المختصين، فقط بين ١٩٧٠ و٢٠٠٥ تناقص التنوع البيولوجي لكوكبنا الأرض إلى حوالي ٢٧ في المئة. لهذا السبب يصرخ باور بأنه «لا يمكن أن يكون عصرنا عصر تنوّع !». وإذا كان لا يوجد في الطبيعة تنوع، ألا يمكن أن نجد هذا التنوع عند البشر؟ وماذا عن

الثقافة؟ والمجتمع المتعدد الثقافات؟

هنا أيضا يسجل الكاتب «صدمته» بحديث الناس بقليل من التنوع؛ فقد أقرت جمعية اللغات المهددة بأن ثلث ما يقارب ٦٥٠٠ لغة مُتحدث بها عالميا «ستنقرض في غضون العقد المقبل»، فاللغات واللهجات ما هي إلا لغات مهددة حسب ما أعلنت عنه الجمعية. فهي ليست فقط من خصائص الثقافة الإنسانية والفكر البشري، بل أيضا هي وسيلة فهم/إدراك العالم والفعل الاجتماعي للمتحدثين، وتقدم قيمة في ذاتها ويجب-بوصفها تظاهرة للإبداع والتنوع للفكر الإنساني- المحافظة عليها وتوثيقها.

يذكرنا باور بأن أوروبا كانت منذ قرون من الجهات المتعددة الثقافات في العالم. وأوروبا تقع منعزلة على هامش غربي على آسيا ولهذا نزح إليها القليل من المهاجرين مقارنة مع منطقة الشرق الأوسط. وبسبب التجانس الديني وعلى إثر نتائج التنصير سارت أوروبا إلى مزيد من الانغلاق الديني لم يعرفه العالم في أي منطقة أخرى. أما اليهود فقد عانوا كثيرا في أوروبا، لكن بحضور الإسلام استرجع اليهود كرامتهم. وعلى أساس معطى حضور الإسلام في أوروبا قام الغرب بتنظيف أوروبا بسرعة، بمجرد تمكنهم من القيام بذلك عسكريا، خاصة في إسبانيا المسلمة. وحين بدأت إرهاصات التنوع المسيحي في القرن السادس عشر في أوروبا قامت الحروب التي لا يمكن مقارنتها بأي حال بحروب السنة والشيعة في العالم الإسلامي، لأن حروب المسيحية كانت حروبا أشد فتكاً وتدميراً على البشرية. وقبل العصر الحديث لم تكن أية قارة في العالم موحّدة ثقافياً وعلى مستوى محتواها مثل أوروبا، وهذا يعني تبرير طريقة إعلان الألمان عن تذمرهم من عادات الأكل وعادات أخرى اجتماعية ودينية وثقافية جلبها «العمال الضيوف» معهم. وقد مثل هؤلاء العمال الضيوف أملاً عند الأوروبيين في تحويل المدن الأوروبية إلى مدن متعددة الثقافات.

بالمقابل يعلن توماس باور أن التعدد الثقافي الحقيقي ساد في العصر ما قبل الحديث على أطراف طرق التجارة الرابطة بين غرب إفريقيا عبر مصر، وصولا إلى الصين وأندونيسيا. ففي كل هذه المدن من مراكش عبر القاهرة، تبريز، مومباي، بوخارى وحتى آتشه دار السلام (أندونيسيا) وشيان (الصين) تم تشييد دور للعبادة للكثير من الديانات المختلفة، وكان الناس يلبسون بطرق مختلفة ومتنوعة، كما كان المرء يستطيع أن يسمع في الشوارع لغات متعددة، وكل هذا كان يبدو بديهيا وعاديا ومتوقعا ومفهوما لذاته. بينما اليوم في برلين أو لندن نرى أشخاصا يتحدثون السواحلية أو الأمازيغية أو يلبس شيخ العمامة، أو يأكل الألمان في مطاعم صينية أرجل الدجاج المقلية، يأتي هذا التنوع الثقافي دون نكهة كنا نجدها في التنوع الثقافي لطرق الحرير في إفريقيا والعالم الإسلامي أو في الإمبراطورية العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى، لأن التنوع الثقافي الكلاسيكي القديم يقدم لنا الأصالة. وقد أعلن شتيفان تسفايج في ١٩٢٥ عن كل هذا في مقال له، حين كتب بأن العادات الفردية للشعوب تراجعت، والتنوع أصبح موحدا، والعادات أصبحت دولية. وقد أصبحت الشعوب تعيش حسب خطاطة مرسومة: إنها ربما الظاهرة الأكثر مهنية وأهمية في عصرنا الحالي. ولهذا كله نتائج خطيرة على الفردانية، فكل البشر تلبس نفس اللباس، ولديها نفس الاهتمامات. وفي كل

مكان نلاحظ توجها نحو القليل من التنوع، وتراجعاً عن التعدد. وساهمت الكثير من الأسباب في هذا التوقف المريب لثقافة الالتباس، منها التمدن والتنقل والعولمة الممولة عبر وسائل النقل، الطبيعة المصنعة، التغير المناخي وأقطاب ثكنات المواد الغذائية الكبرى وبشكل عام نمط الاقتصاد الرأسمالي.

هنا تأتي دعوة توماس باور إلى ضرورة وجود سلوك حذائي تجاه تدمير التنوع، فرغم أن الأمر تعلق في ألمانيا بتعدد ثقافي سلس إلا أنه أصبح من أهم المواضيع في النقاشات السياسية العامة وفي الإعلام. بالتالي يمكننا أن نرى بأن هذا الكتاب لا يرسم خرائط للتنوع في ألمانيا وأوروبا الغربية، بل عن مدى قابليتنا أو عدم قابليتنا لتحمل التعدد الثقافي والتنوع في كل تمظهراته: تعاملنا مع التعدد الخارجي مثل التنوع الإثني أو التنوع في العلاقات الحياتية وتعاملنا مع «الحقائق المتنوعة والمتعددة لعالم لا يمكن أن يكون أبدا موحدا. لأنه بالضبط هذا هو عالمنا، غير موحد، فيه الناس مختلفون، يقبلون ويسمحون بتعدد التفسيرات، يظهرون غامضين لا يعطون معنى موحدا، وأحاسيسهم متناقضة كما سلوكاتهم، باختصار: العالم مليء بالغموض والالتباس».

بخصوص حالات الالتباس التي تحيل على أحداث عالمية، تحدث باور في كتابه عن ثلاثة أمثلة: في البداية تقول المقارنة بين الولايات المتحدة وألمانيا إنه في أمريكا يوجد القليل من التسامح إزاء الالتباس، ففي سياستها تميل الولايات المتحدة الأمريكية إلى التدخل المباشر لكي تجعل الأمور واقعية وأكثر وضوحا. كما أن الرأسمالية في أمريكا تميل إلى التجذر. لكن باور يحذرنا من الانخداع بهذا المعطى واعتبار أوروبا نموذجاً للمجتمعات المعاصرة التي تقدم لنا جزراً روحية للتسامح ازاء الالتباس. وفي المثال الديني يمكن اعتبار الكنيسة دليلا جيدا على التسامح إزاء الالتباس في المجتمعات الغربية الأوروبية، فقد أصبحت بسرعة متسامحة مع الالتباس. يقول الصحفي ماتياس دروبينسكي إنه لا توجد أية مؤسسة أخرى فيها الكثير من التناقضات والفروقات الثقافية مثل الكنيسة الكاثوليكية، لهذا لا يجب أن يكون لدى الكنيسة الكاثوليكية خوف من المستقبل: لأنها تتحمل الصراعات عن التنوع والوحدة، التقليد والحداثة. إنها مؤسسة قوية.

وكانت المجتمعات الإسلامية في الشرق تستقبل المسلمين في المجتمع الفارسي متسامحة مع الالتباس، وكانت تستقبل المبشرين باحترام وبلطف، يستقبلونهم في فارس كما في الإمبراطورية العثمانية ويمنحونهم مجالات واسعة للعمل كما لم يفعلها قس في طوائف أخرى في غرب أوروبا. وبما أن المسلمين لا يسمحون بالردة فقد كان الهدف الرئيسي للمبشرين المسيحيين جماعة الأرمينيين الكبيرة في بلاد فارس.

أما في إيطاليا في عصر النهضة فقد حدث تطور مهم وإيجابي في ثقافة الالتباس في التاريخ الأوروبي لم تحدث إلا نادرا، فقد كان البابا متسامحا في الفن والثقافة إزاء الفن. وكان تيار الإصلاح في ألمانيا أكثر تسامحا مقارنة مع الإصلاح الذي تزعمه كالفين في جينيف سويسرا والذي قال إن الإنجيل في كل قضاياه حتمي وذو معنى واحد وموحد ومرتبط بشكل كبير وغير محدود دون أن يتيح أي مجال للتفسير.

اهتم توماس باور في هذا الكتاب بترسانة من المفاهيم، خاصة تلك المتصلة بثقافة الالتباس والغموض، والقادرة على الكشف عن المفاهيم ذات الفعالية والقدرة المنهجية والعلمية في مختلف الميادين العلمية الأصيلة التي لها علاقة بموضوع الكتاب. ولا شك أن نقل تلك المفاهيم من ميادين وسياقات مختلفة ثقافية متعددة يدل على إنسانية المعرفة العلمية لدى توماس باور. والكاتب نفسه لا يفصح عن أطروحته إلا في الصفحة ٣٦-٣٧، أي في نهاية الفصل الثالث، وهو ما يبرر وجهة نظرنا بأن الكاتب يعطي أولوية كبيرة للمفاهيم في هذا الكتاب. وهي المفاهيم التي مكنت من تقديم الأداة العلمية وأطرت هذا العمل منهجيا وحصرت الأطروحة التي دافع عنها باور ومفادها أن عصرنا الحالي هو عصر قليل التسامح نادرا ما يقبل ثقافة الالتباس والغموض.

إن من قدر الإنسان العيش مع الالتباس. ولا يمكن بأية حال تجنب ذلك. ومن العقلانية محاولة العمل على تقليص الالتباس إلى قياس معقول يتيح هامشاً حيوياً دون العمل على محاولة إلغائه كليا. وحسب عالم الاجتماع تسيجمونت باومان فإن الالتباس يتمظهر لنا بصفته القوة الوحيدة التي يسمح وضعها بتقليص مخاطر الحداثة، لكن علم النفس لديه رأي آخر، فالمشكلة هي أن الإنسان بطبيعته يعمل على تجنب الوضعيات الغامضة والمبهمة وغير المحددة والمتضاربة والمتناقضة وهو بهذا يعتبر «غير متسامح مع الالتباس».

الكتاب: توحيد العالم: عن فقدان تعدد المعنى والتنوع.
الكاتب: توماس باور.
اللغة: اللغة الألمانية.
السنة: ٢٠١٨. (عدد الصفحات:١٢٧).
دار النشر: ركلام، سلسلة «ما ذا يعني كل هذا؟»، شتوتغارت ألمانيا.

*** مترجم وباحث مغربي**

بصمة: كيف للحمض النووي أن يحدد شخصيتنا؟ روبيرت بولمين

طلال اليزيدي *

قريبًا، سنتمكَّن من معرفة إذا ما الأطفال حديثو الولادة سيكونون عُرضة للإصابة بالاكتئاب، والتوتر، أو انفصام الشخصية خلال فترة حياتهم، سوف نتمكَّن من التعرُّف على ما إذا كان أطفالنا سيعانون من صُعوبات القراءة، ويُصبحون عُرضة للسمنة المفرطة، أو مُعرَّضين للإصابة بألزهايمر في فترة حياتهم المتأخِّرة. رسالة الكتاب حقيقة تتمحور حول التحديد الجيني للشخصية «فالحمض الوراثي ليس كل الاهتمام، بل هو جلُّ الاهتمام فوق كل الأشياء الأخرى المحدِّدة لشخصيتنا مُجتمعة، «فالوالدان الجيدان يُنجبان أطفالًا جيدين؛ لأنَّهم جيدون على المستوى الجيني وليس الشخصي»، المؤثِّر الرئيسي في شخصيتنا ليس أي مُؤثر أو أي حمض وراثي، بل المؤثر الشخصي في تحديد شخصيتنا هو الحمض الوراثي منقوص الأكسجين الكروموسومي.

رُوبيرت بولمين يتوقع ذلك، في كتابه «بصمة»، ويجادل بأنَّ معرفتنا لمستقبل شخصية أبنائنا إذا ما كانوا عُرضة للاكتئاب أو انفصام الشخصية من خلال تحليل مسبق للحمض النووي الوراثي DNA قبل الولادة، سيُمكننا من التعامل والتخطيط بشكل أفضل لمستقبلنا ومستقبل أبنائنا.

بولمين أوضح أن ما يُسمَّى بالرعاية الطبيعية -من رعاية منزلية وبيئة مشجعة نوفرها لأبنائنا- لا تُؤثر على نمو الأشخاص الذين نُحب. بولمين استطرد بأنَّ الرعاية المنزلية، وكذلك البيئة المدرسية لا تُؤثر على مُستقبل أطفالنا؛ سواء إذا أصبحوا طيِّبين أو قاسين، سعيدين أو كئيبين، أغنياء أو فقراء، وبهذه النظرية بولمين يُوضِّح أنَّ الأطفال في فترة النشأة مُتساوون في الفرص من ناحية التكوين الشخصي إلى حدٍّ ما، لكنَّ الفارق الوحيد الذي يُحدِّد شخصيتنا ومستقبلنا هو الحمض النووي الوراثي المستورث من والدينا، وأنَّ التكوين الشخصي خلال مراحل حياتنا خارج سيطرتنا؛ لأنه مُشفَّر في الحمض الوراثي.

بولمين درس جينات الشخصية على مدار ٤٥ سنة، وهو يعتبر من الرائدين في دراسة التوائم المتطابقة في المحتوى الوراثي الناشئة في عوائل مختلفة، ويُقارن تلك النتائج بتوائم أخرى نشأت في نفس العائلة. بولمين أكد أنَّ في كلا الحالتين التطابق في المحتوى الوراثي ليس إلا ٩٩٪ التي يشترك بها كل البشر على كلِّ حال. هذه الدراسات تطلَّبت عشرات السنوات وآلاف التوائم. بولمين وأصحابه فحصوا التأثير النسبي للجينات والبيئة -فيما يُعرف بالطبيعة الخلقية والرعاية- على تكوين الشخصية، وقد أكدوا أن الجينات دائما تنتصر.

بولمين كتب بتحفُّظ مع الثورة الجينية المستمرة التي بلا شك سوف تغير من حياتنا ومجتمعاتنا. المجتمعات يجب أن تكون واعية وحذرة من الإساءة في استعمال البيانات الجينية حتى الآن، إضافة إلى ذلك التعطش للوصول إلى البيانات الجينية الشخصية من الجانب الرقمي المظلم للفيسبوك وجوجل، كذلك شركات التأمين الصحي متعطشة أيضا للوصول إلى معلومات كهذه. التفكير بأن مجتمعاتنا الجديدة ستكون قادرة على التحكم بالبيانات الجينية الشخصية دون وقوع نتائج سلبية تفكير مفرط بالتفاؤل، وبولمين وصف نفسه بالمتفائل والمتشائم في هذا الشأن.

الجينوم البشري الكامل تمَّت سَلْسَلته والتعرُّف على كامل القواعد النيتروجينية المكونة له في العام ٢٠٠٤؛ وذلك يعني أول سلسلة للحمض النووي البشري المحتوي على ستة بلايين قاعدة مكونة للحمض النووي DNA لشخص ما.. ذلك المشروع الضخم تطلب مئات العلماء في أكثر من عقد، وكلفهم أكثر من بليونين جنيه إسترليني، اليوم سلسلة الحمض النووي لبشر ما بشكل كامل يتطلب حوالي أقل من ١٠٠٠ جنيه إسترليني، هذه النهضة في التكنولوجيا ساعدتنا على معرفة كيفية تأثير حمضنا الوراثي على شخصيتنا، وسيكولوجيتنا، وسلوكنا.

البصمة الوراثية لشخصيتنا تتحدد في الـ١٪ من الـ DNA الذي في الأصل يُفرِّق بين البشر، والتأثير الجيني على شخصيَّتنا يظهر من آلاف التغيرات الجينية الطفيفة على حمضنا النووي، بدلا من جين أو عدد من الجينات المعينة. هذا الحجم الكبير من التغيير يجعل كلَّ واحد من البشر فريدا جينياً. هذا التغير الجيني الطفيف يعرف بالتغيير النيوكليوتيدي المفرد (single nucleotide). لدينا حاليا معلومات قليلة عن كيفية تغيير هذه التغيرات الأحادية للسلوك في أدمغتنا، ولكن جميعها تشكل ٥٠٪ من شخصيتنا، والبقية يشكله «الأحداث الشخصية الغير ممنهجة المصادفة التي لا تترك تأثيراً دائماً»، العلماء الآن قادرُون على تحليل بيانات تغيرات النيوكليوتيدات الأحادية SNPs المرتبطة بصفة معينة، والوصول إلى نتيجة تُعرف بالنتيجة البولوجينيه polygenic score تشير إلى إمكانية إصابتنا بالاكتئاب، والتوتر، وانفصام الشخصية أو البدانة.

حاليا.. القوة التوقعية للنتيجة البولجينية محدُودة نوعاً ما. النتيجة البولوجينية الحالية قادرة على توقع تغيرات جينية نسبتها ١١٪ مرتبطة بالتفوق المدرسي، و٧٪ للذكاء، و٧٪ للتعرض لانفصام بالشخصية، و١٪ مرتبطة

بمعظم التغيرات الشخصية في المجتمع. لكن بزيادة عدد الأشخاص وحجم البينات، فإن النتيجة البولوجينية ستكون قادرة على تحديد الـ٥٠٪ من التغيرات الجينية المرتبطة بتحديد الشخصية في حمضنا النووي، أما الـ٥٠٪ من التغيرات المؤثرة في تكوين الشخصية فيحددها الأحداث الشخصية غير المُمنهجة، والتي نتعرض لها في حياتنا، لكنها لا تشكل تغيُّرا دائما وإنما لحظيًا كما أوضح بولمين.

النتيجة البولوجينية ببساطة تعبر عن قيمة تقديرية وليس تحديدية لصفة شخصية من المحتمل أن تتكون خلال المرحلة الحياتية؛ فعلى سبيل المثال نسبة بولمين البولوجينية للإصابة بانفصام الشخصية هي ٨٥٪، ونسبته بالتفوق في التحصيل الدراسي هي ٩٤٪، وهي تبدو مناسبة لبروفيسور في كينجس كوليج بلندن.

بولمين يقترح استخدام التعليم الشخصي المنهج ليليق بشخصية طفل ما بالنسبة لحمضه الوراثي، ويرجح أن تعاملنا مع شخصية ما من الممكن أن تصاب باضطراب مستقبلا. كما يجب أن يكون مثل تعاملنا مع الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة كالتوحد، وبولمين يدعو الإخصائيين النفسيين إلى الانتقال من مرحلة تشخيص الاضطرابات النفسية إلى تشخيص تدريجي للشخصيات يعتمد على النتيجة البولجينية؛ فمن وجهة نظر بولمين كل الأطفال يحتاجون إلى عناية خاصة، فكيف لنا أن نعرف احتياجاتهم الخاصة دون معرفة شخصيتهم، ولمعرفة شخصيتهم يتطلب الأمر معرفة ما يخبؤه محتواهم الوراثي.

أما بالنسبة لتأثير الرعاية على شخصيتنا متوسط التأثير على كل المجتمع فسيكون قريبا جدًا من الصفر، وقد تكون أنت سعيد الحظ الذي سيتمكن من تفعيل تلك النسبة الضئيلة لتؤثر على شخصية طفلك من خلال الرعاية. بولمين ينصح باستغلال تلك النسبة الضئيلة لكنه أيضا ينصح بجعل الأطفال أن يتركوا لتكوين الشخصية المشفرة في أحماضهم النووية وتركهم للتوجه للفرص المناسبة لهم جينيًا.

مثلما قال بولمين: «جِنّيُ الجينوم خرج خارج الفانوس، وحتى لو حاولنا حشوه بداخل الفانوس فلن نتمكن من ذلك». التطور المتسارع في مجال الجينوم البشري فتح آفاقا جديدة للمجتمعات في شتى المجالات، لكن فكرة بولمين في الحقيقة خاضعة للتحديد الجيني فقط بشكل كبير دون

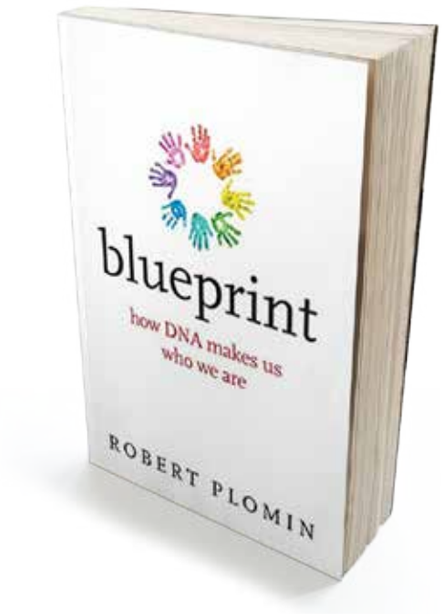

الإشارة إلى التأثير البيئي على الشخصية. مجلة الـ(nature) انتقدت كتابه، مشيرة إلى أن أهمية التعليم، والبيئة المنزلية، والحمية الغذائية للطالب تؤثر جميعها على التحصيل الدراسي بشكل مباشر جدا؛ فالكلُ يعلم مدى تأثير سُكَّر الدم في التأثير الذهني، وكذلك الصدمات في فترة الطفولة كفقدان الأبوين أو التعنيف الأسري من الأبوين سوف يترك بالتأكيد جانبا مظلما في شخصية الطفل الناشئ، لكن بولمين يتجاهل كل هذه الظروف أثناء فتره النشأة ويعتبرها بالأحداث الشخصية غير المنهجة التي تحدث مصادفة في حياة الطفل، لكنها لا تترك أثرا. لكن بكل بساطة للرد على نظرية بولمين، انظر إلى مجتمعات السجون وسوف تلاحظ أن معظمهم لم ينشأوا في بيئة اجتماعية وتعليمية جيدة.

في الحقيقة، بولمين قلَّل من مدى تأثير رسالته ومدى دعمها للحتمية والحياه غير العادلة، فإذا كان المحتوم حصريا في الجينات فلمَ التعب من المحاولة للوصول لهدف معين أو اكتساب مهارة معينة؟ في الحقيقة بولمين صادق في أنه كلما زادت العدالة الاجتماعية كانت التغيرات الجينية المؤثرة في الشخصية أكثر ظهورا؛ فعلى سبيل المثال العدالة الاجتماعية بين الجنسين في الدول الاسكندنافية سمحت بالعدالة بين الذكور والإناث في مجالات العمل بالأخص الأعمال التي تتطلب جهدا بدنيا. لكن من الواضح أيضا أن التأثير الأسري من رعاية وغيرها يؤثر على حياه الطفل الناشئ. ليس الأسرة فحسب بل حتى المجتمع من حوله يؤثر على حياه الطفل، والتعنيف الأسري، والصدمات العاطفية للطفل في فترة النشأة تترك أثرا مزمنا؛ فشخصيًا أختلف مع بولمين بأن هذه الصدمات تؤثر بتغيير لحظي ليس له أثر حتمي، بل هذه الصدمات قد يكون لها أثر أزلي واضح يجب التخلص منه وتخطيه ليتمكن الطفل من العيش بسلام بعد حادثه ما شنيعة.

بولمين أيضًا أوضح أنَّ نظريته لا تستخلق طبقة معينة من البشر الأذكياء؛ لأن الذكاء يتوارث فيما نسبته ٥٠٪؛ أي أن الأذكياء سينجبون أشخاصا بمستوى متوسط من الذكاء، فمهما كان ذكاء الشخص توارث الذكاء سيكون دائما بشكل متوسط. على كل حال، كونك قد كُرِّمت بذكاء فوق المستوى الاعتيادي؛ فذلك جائزة بحد ذاته. بولمين يوضح أنه يفضل اصطفاءً طبقيًا مبنيًا على الذكاء للوظائف التي تتطلب مهارات عالية، ولا يفضل مُجتمعات طبقية تُفرِّق بين الناجحين والمخفقين؛ فالفارق بين الحالتين جليٌ. ولعل بولمين قد بالغ في تقدير دور الجينات في تحديد الشخصية، لكنها بالفعل قد تكون دليلا مهما لناقش مستقبلي لا ينتهي.

وختاما.. فإنَّ كتاب «بصمة» قد يكون إلى حدٍّ ما بطريقة غير مقصودة خارطة طريق لمجتمعات رجعية؛ أفكار بولمين توفر وجهة نظر للمتوجهين لترك طرق وأساليب تعليمية موثوقة لتحسين مستوى التحصيل الأكاديمي للطلاب المحرومين اجتماعيا واقتصاديا؛ ففكرة بولمين ليست إلا تحديد شخصية طفل ما بطريقة الطب الشرعي، مبنية على نتائج خوارزمية بولجينية. شخصيات الأطفال ستتحدد منذ الولادة بناء على حمضهم النووي الوراثي، والتوقعات والفرص لحياة هؤلاء الأطفال ستتحدد أيضا، والموارد والتجارب ستنفق من اليوم الأول، قبل أن يكون لهؤلاء الأطفال فرصة لتبيان معدنهم.

- الكتاب: بصمة.. كيف للحمض النووي أن يحدد شخصيتنا؟.
- المؤلف: روبيرت بولمين.
- الناشر: The MIT Press، باللغة الإنجليزية - ٢٠١٨.
- عدد الصفحات: ٢٨٨ صفحة.

*** كاتب عُماني**

تاريخ العلاقة بين الذهن والجسد في القدامة المتأخرة
تأليف جماعي تحت إشراف آنا مرمدورو وصوفي كارثوايت

وليد العبري *

من الأمور المُعقدة التي تناولتها الفلسفة ولا تزال، مسألة الصلة بين ذهننا وجسمنا، ويعد هذا الكتاب أول كتاب جامع في تناول هذه المسألة كما طرحت على عهد القدامة المتأخرة «العهد الهلينستي» الذي تثاقفت فيه الحضارتان اليونانية والرومانية. وهو كتاب يستكشف التصورات التي سادت عن الذهن وعن الجسد وعن أوجه التعالق بينهم، خلال تلك الحقبة، عارضا هذه التصرفات كما بدت عند الفلاسفة الوسنيين والمسيحيين على حد سواء نومينيوس، دينيسوس المنحول، أوغسطينوس وغيرهم، ولا سيما منها ما تعلق بالبعث والتجسد والتنسك. وقد نهضت جماعة من الباحثين بإيراد هؤلاء المفكرين، في لسانها الأصلي مع إشراف آنا مرمدورو التي تحمل منصب رئيس قسم الميتافيزيقيا في جامعة دورهام، وهي في نفس الوقت زميل أبحاث كلية كوربوس كريستي وعضو مشارك في كليّة الفلسفة في جامعة أكسفورد، وكذلك صوفي كارثوايت وهي مؤلفة الأنثروبولوجيا الإنسانية. ويعتبر هذا الكتاب مرجعا للطلاب والعلماء والمفكرين عن العقلية المتأخرة، وتاريخ الدين واللاهوت، وفلسفة العقل.

في الفصول الأولى تحدث الكتاب عن مشاهد الفلسفة القديمة منذ بدايتها، وعن النهج التاريخي للفلسفة، وعن سوء استخدام مصطلح الفلسفة في وقتنا الحاضر؛ إذ في عالمنا اليومي هناك استخدام شعبي لفلسفة الكلمة، الفلسفة هي مصطلح يطبق على أي منطقة من مجالات الحياة، قد تعبر بعض الأسئلة عن هذا الموقف العام: ما هي فلسفة عملك؟ ما هي فلسفتك في قيادة السيارة؟ أو فلسفتك في استخدام المال؟ إذا ساد سوء الاستخدام الشعبي للكلمة، فيمكن للمرء أن يعترف بأن أي شخص يفكر بجدية في أي موضوع هو فيلسوف، وإذا فعلنا ذلك، فإننا نتجاهل التخصصات الأكاديمية، أو أصول الفلسفة، وإذا تم قبول هذا التعريف العام، يصبح الجميع فيلسوفا. ومن قبيل المفارقة، أنّه عندما يكون الجميع فيلسوفا، تصبح الفلسفة بلا معنى كتعريف، وبسبب هذا القصور يصبح من الواضح أن علينا أن نبحث في مكان آخر عن تعريف للفلسفة.

وعلى الرغم من هذا التنوع، فإنّ الفلسفة مهمة، إذ قال أفلاطون إنّ الفلسفة هي هبة من الآلهة منحت للبشر، وقد يعكس هذا قدرة الإنسان على التفكير بشكل عام حول العالم، وبشكل خاص حول ذاته وداخله، ويعكس بيان سقراط الشهير «اعرف نفسك»، كما حذّر أفلاطون من إهمال الفلسفة، إذ قال في إحدى عباراته المشهورة «إنّ الحيوانات البرية جاءت من الرجال الذين لم يكن لهم استخدام للفلسفة».

وعند الحديث عن النهج التاريخي والتغلل فيه، يجب علينا دراسة الشخصيات التاريخية، وهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وأوغسطين وتاليس وفيلو وأبلتينوس وأكوينيز وكانط وإريغينا وهيوم وماركس وهيجيل وإنشتاين وغيرهم الكثير، كلهم يعتبرون فلاسفة، لكن ما الذي يجمعهم معا؟ لأنّهم متنوعون جدا في كثير من وجهات نظرهم؟ إجابة واحدة تكمن في مجموعتهم المشتركة من المشاكل والمخاوف؛ إذ اهتم الكثيرون بمشاكل الكون، وأصله، وما هو في طبيعته، ومسألة وجود الإنسان، والخير والشر، والسياسة، ومواضيع أخرى.

ثمّ تحدث الكتاب عن نظريات العقل في العصر الهلنستي. وقبل الخوض في الحديث عن نظريات العقل، سنقوم بتوضيح ما العصر الهلنستي، حتى يتمكن القارئ من ربط الأفكار بعضها ببعض، وتتضح الصورة بشكل عام، إن «العصر الهلنستي» اصطلاح تاريخي أطلق على الفترة الزمنية الممتدة من وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م. حتى قيام الإمبراطورية الرومانية على يد أوغسطس في عام ٣٠ ق.م. وقد سمي بهذا الاسم تمييزاً له عن الفترة الإغريقية، وهي الهلينية الصحيحة، وعلى أساس أنّ الحضارة الجديدة منتسبة إلى هذه الحضارة، أو متأثرة بها. ويختلف المؤرخون في تحديد معنى لفظة «هلنستي»، وان كان الجميع يتفقون على أن الهلنستية عنوان مناسب للدلالة على حضارة القرون الثلاثة السابقة للميلاد، التي كانت فيها الثقافة الإغريقية تسود، إضافة إلى بلاد اليونان، بلاد الحضارات القديمة، مصر وفارس والرافدين وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين.

تعد نظرية العقل من القضايا الفلسفية التي لاتزال موضوع إشكال وتساؤل حتى في الفلسفة المعاصرة، وقد ظل مفهوم العقل في مرحلة ما قبل أرسطو ملتبسا، لم يرق إلى مستوى التأسيس النظري لفلسفة العقل، الأمر الذي تأتى على يد أرسطو واضع أول نظرية في العقل لتاريخ الفكر الفلسفي؛ إذ كان أكثر وضوحا في التمييز بين التصور الأبيستمولوجي للعقل الإنساني بوصفه أداة برهانية، والتصور الميتافيزيقي والأنطولوجي للعقل بوصفه المبدأ الأساسي للموجودات.

بيد أنّ الدلالات المختلفة لنظرية العقل الأرسطية هي من الخصوبة والغنى، بحيث أصبحت مثارا للجدل والنقاش بين مفسري المشائية اليونانية والعربية وشراحها، وبتأثير من أرسطو وشراحه والأفلاطونية المحدثة.

وتاريخيا تعود نظرية العقل في أصولها الفكرية ودلالاتها الفلسفية إلى أرسطو، الذي ميّز بين نوعين من العقل، هما: «العقل العملي» و«العقل النظري»، وتناولهما في ثلاثة مؤلفات مختلفة من حيث المضمون، فقد خص العقل العملي في كتابه «الاخلاق النيقوماخية»، أما العقل النظري فقد خصه في «الميتافيزيقا» وفي كتاب النفس، وذلك لأن لكل من العقل العملي والعقل النظري مبادئه وغاياته، وذلك بحسب ناحيتي فعل العقل الإنساني.

كذلك تحدث الكتاب عن مومينيوس الأفامي، الشخصية الذي ازدهر اسمه في النصف الأخير من القرن الميلادي الثاني، ويصنف مومينيوس من الفلاسفة الفيثاغوريين الجدد، وجعل من فيثاغورث معلمه الأعلى، على الرغم من أن توجهه واقتباساته عن أفلاطون تبدو واضحة كل الوضوح، وقد حفظت الشظايا والبقايا الأثرية بعضا من مؤلفاته العديدة التي قدمت لنا عن طريق أوريجانوس، تيودوريت وخاصة من قبل يوزيبيوس، ومن خلالها أمكننا التعرف على طبيعته الفلسفية الفيثاغورثية - الأفلاطونية.

على الرغم من كون نومينيوس من الفيثاغورثيين الجدد، إلا أنّ هدفه كان تتبّع الفلسفة الأفلاطونية وصولا إلى الفيثاغورثية، وفي الوقت نفسه إثبات عدم تعارضهما مع المعتقدات الدينية اليهودية والمجوسية والمصرية. وكان جُل اهتمامه استعادة الفلسفة الأفلاطونية والفيثاغورثية، والتوسط بين مذهبي سقراط وفيثاغورث، وتطهيرها من الآثار الأرسطية والرواقية.

ومن الشخصيات الأخرى التي تحدث عنها هذا الكتاب

هو أفلاطون، إذ خصص مساحة كبيرة للحديث عنه كما خصصها لباقي الفلاسفة الآخرين، وتحدث باقتضاب عن نظرياته في العقل وفلسفة الوجود، التي أثارت جدلا واسعا بينه وبين الفلاسفة الآخرين، وغيرها من النظريات الأخرى. كذلك خصص الكتاب مساحة لكل من الفلاسفة نومينيوس، ودينيسوس المنحول، وأوغسطينوس وامبليكوس، والحديث عن نظرياتهم، وطريقة تفكيرهم، ونظرتهم للجسد والروح.

إنّ أفلاطون يمجد الروح ويحتقر الجسد، بل ويعتبره مصدر العمى والتشويش، لأن أساسه حسي أي يعتمد على الحواس الخمس المعروفة. أمّا الروح فإنها أساس النظر الصحيح لأن أساسها عقلي، «لكي تصبح فيلسوفا حكيما ينبغي أن تمارس على نفسك تحويلا ينتهي بك إلى الانشطار إلى ثنائية متنافرة تغلب فيها سلطة الروح على الجسد». يضيف أفلاطون «ينبغي التخلص من حمق الجسد، وإن انطواء النفس على ذاتها وبعدها عن الجسد إنما هو التفلسف على الحقيقة»، هنا تكلم أفلاطون عن النفس بدل الكلام عن الجسد! فهل، ترى، الروح بالنسبة له هي النفس؟ نفهم ذلك من منطوق كلامه الأخير. هذا الكلام ذو مغزى خطير لأن الديانة المندائية تنهج النهج المعاكس إذ تمجد النفس وتحتقر الروح؛ لإنها مصدر الشرور في حياة المندائي، النفس هبة من الله، من مليك النور الحي الأزلي حسب معتقداتهم .

وما كان موقف أرسطو، تلميذ أفلاطون، من الجسد والروح والنفس؟ إنه خالف معلمه في هذا الشأن خلافا كبيرا وطرح فكرة جديدة لم يسبقه إليها أحد من الفلاسفة والمفكرين. قال ما يلي: «جسد باعتباره آلة تملك أدوات النطق، وروح بوصفها نفسا تفكر». اعترض الكثير من المفكرين والفلاسفة على كلام أرسطو طاليس هذا بأن ليس جسد الإنسان آلة للنطق فحسب، وإنما هو مركز وأداة السمع والبصر والشم واللمس والتفكير والخيال والقوة الحافظة (الذاكرة) وغيرها الكثير. ثم إنه ربط الروح بالنفس، روح تفكر ولكن بجهاز آخر هو النفس! خالف أرسطو بأطروحته هذه جميع الفلاسفة والأديان كما سنرى لاحقا؛ إذ نعرف جميعا أن الدماغ هو مركز التفكير، ومكانه معروف محدد في رأس الإنسان، فما موقع ومكان النفس في جسد البشر؟ وإذا كانت الروح تفكر بالنفس فما وظيفة الدماغ؟

وللديانة المندائية رأي آخر في موضوع الروح يختلف جذريا عن باقي الأديان، ولا سيما الدين الإسلامي. يعتقد الصابئة المندائيون أن للإنسان روحا ونفسا، وأن النفس هي هبة الله للإنسان التي فيها من سنا وجلال موطنها الأصلي، ونوره وكماله وجماله وسلامه لإعانتها من شرور الأرض ومغرياتها، تكون عرضة للحساب. أما الروح التي حلت جسد الإنسان مع نفسه فهي التي تدفع الإنسان إلى الشر والفساد والمخالفة، لأنها مجموعة من الخلايا الحية والغرائز والعادات المختلفة التي حملت معها كل ما في عالم الظلام من خبث ومكر وكذب وشر ورياء وفساد وإغراء بالخطيئة والمعصية، هذه هي الروح المندائية حسب العقيدة المندائية وهي على النقيض من الروح في الدين

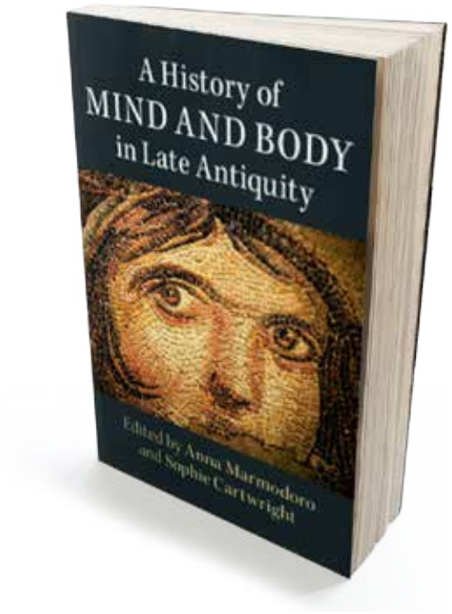

الإسلامي، ومن الروح في فلسفة أفلاطون قبل الدين الإسلامي، ثم في فلسفة تلميذه أرسطو حسب تصورات ومعتقدات المتصوفة المعروفة، هل يعتقد متصوفة الإسلام أنهم، كالمسيح، فيهم روح الله كلا أو جزءا؟ إنهم كأفلاطون أو شديدي التأثر بفلسفته وموقفه من الروح.

وتحدث الكتاب كذلك عن الزهد في المسيحية مؤكدا أن بذور حياة الزهد والرهبانية أي الانعزال في أصول المسيحية الأولى فالعهد الجديد، لم تخل من الإشارات التي تحض الناس على الانصراف للعبادة متى استطاعوا ذلك، وأن يبتعدوا عن النساء وعدم الزواج بهن، فلقد ورد في إنجيل متى ﴿ ١٢ :١٩ ﴾ : « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات، من استطاع أن يقبل فليقبل».

وجاء في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس: «وأما من جهة الأمور التي كتبتم عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة»، وإذا كنا نسمع عن أمثلة لبعض المخلصين الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية في أوائل عهد المسيحية، فإن هذا اللون من ألوان الحياة الدينية لم يصبح أمرا ما في الشرق المسيحي قبل القرن الرابع ﴿حيث أنه في عهد الإمبراطور قسطنطين أصبحت الديانة المسيحية ديانة مرخصة﴾، في حين لم ينتشر في الغرب قبل القرن الخامس، ولم يصبح شائعا قبل القرن السادس، ويفهم من هذا أن حياة الزهد والرهبانية شرقية الأصل، بل أقوى أثر تركه الشرق في المسيحية.

وتستند عقيدة التزهد والرهبنة القديمة إلى اصطلاح الـ Askesis الذي كان نقطة الانطلاق لكل حركات الرهبنة في الكنيسة القديمة.وأصل «الاسكيزس»، في اللغة اليونانية ومعناه: رياضة أو ممارسة، فكان يعني في الأصل رياضة معينة للوصول إلى كمال معين، ولا تقتصر هذه الرياضة على ميدان واحد من ميادين الحياة بل تشمل كل ميادين الحياة التي من شأنها أن توصل الإنسان إلى درجة الكمال، واعتبر أهم ميدان لتحقيق الكمال هو القيام بتمارين رياضية بدنية مجردة وهو ما نعرفه اليوم ب «اتليتيكا»، ولكن مع مرور الزمن اكتسب الاسكيزس مفاهيم أخرى غير التمارين الرياضية البدنية، وإنما الجانب الروحي، والذي احتل المكانة الأولى في مدلول ومفهوم الاصطلاح.

يبدو من خلال تلك الأفكار الّتي تحدثنا عنها، أننا واحد بدون انفصال جسد وروح، علينا التركيز على هذه الفكرة، لأنّه شئنا أم أبينا، يبقى فكرنا متأثرا بالفكر اليوناني القديم: الإنسان كائن مزدوج وليس موحدا (جسد فان، وروح خالدة). فكل الفكر الغربي الّذي تأثرنا به، والّذي بدوره تأثر بالفكر اليوناني القديم، علمنا هذا «الانفصال» بين الجسد والروح، مع شيء من عدم الثقة بالجسد، أو النظرة السلبية له، لكونه مصدر فوضى، أو ضعف، وبالفكر المسيحي مصدرا للخطيئة، فالروح أو النّفس عليها أن تخرج من الجسد، الذي هو سجنها كما يقول أفلاطون، وإلا تبقى سجينة لهذا الجسد الذي يقودها للظلمات. بينما الفكر السامي، فكر الكتاب المقدس بعيد كل البعد عن هذا المعتقد؛ ففي نظر الكتاب المقدس، الجسد ليس عنصرا خارجيا يمكن للروح الاستعاضة عنه، فالجسد هو جزء أساسي وجوهري من كياننا الإنساني.

ومن هنا يمكننا القول: إن الجسد والروح مترابطان بعضهما ببعض على صعيد الوجود، كارتباط الصوت والمعنى على صعيد اللغة، فالروح لا يوجد أبدا بدون جسد، والجسد بدون الروح يصبح جثة. كل ما هو متعلق بوجودنا الإنساني يعبر عنه من خلال الجسد، كل شيء مرموز له من خلال الجسد، حتى في أعمالنا الأكثر روحية، الجسد حاضر ويفرض علينا متطلباته، وحدوده، ولكنه يجعل هذه الأعمال ممكنة أيضا. فليس الروح هو الذي يصلي، بل الإنسان بكليّته هو الذي يصلي.

يقول المفكر الفرنسي باسكال: «من أراد أن يكون ملاكا كان غبيا» فوحدتنا الإنسانيّة هشة، ومشكوك بها، وعلينا دائما أن نصنعها، ولا يمكننا التّخلي عن هذه المهمة، وبالرغم من كل التعقيدات التي تمسنا، فمهمتنا هي أن نجعل الروح يقود المسيرة، وما هو مصيري في هذا الموضوع هو تحقيق ذاتنا، وشخصيتنا، في النهاية تحقيق نمونا الصحيح. إنّها مهمة أو عمل ولكنها أيضا اختيار، إذا لم نعمل بصبر لكي يكون الروح فينا هو الذي يقودنا، نستسلم آنذاك لنزواتنا مع كل ما تحمله من فوضى. يمكننا أن نذكر قول القديس أغسطينوس: «إن لم تصبحوا روحانيين حتى في عمق أجسادكم، تصبحوا جسديين في صميم روحكم».

اسم الكتاب: تاريخ العلاقة بين الذهن والجسد في القدامة المتأخرة.
المؤلف: تأليف جماعي تحت إشراف آنا مرمدورو وصوفي كارثوايت.
الناشر: منشورات جامعة كامبريدج
اللغة: الإنجليزية.
السنة: ٢٠١٨م.
الصفحات: ٤٠٤ صفحة.

*** كاتب عُماني**

إصدارات عالمية جديدة

آخر الإصدارات في اللغة الفرنسية
(سعيد بوكرامي)

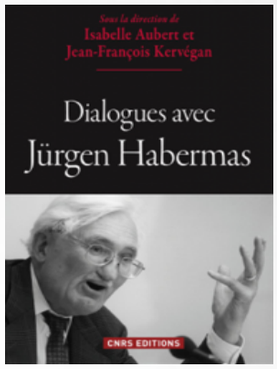

الكتاب: حوارات مع يورغن هابرماس
المؤلف: جان فرانسوا كيرفيغان وإيزابيل أوبير
الناشر: منشورات CNRS باريس. فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٤٩٨ ص
اللغة: الفرنسية.

يعد الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس، الممثل الأبرز لمدرسة فرانكفورت، بل أصبح المؤلف الكلاسيكي لفلسفتها، لكن أعمالها تتميز بالتعقيد والتعدد، وهي تتألف من حوالي خمسين كتابًا وألف مقال، ما زالت غير معروفة وأحيانًا غير مفهومة. كيف نفهم إذن تنوع اهتماماته، من نظريات الفعل واللغة إلى الأخلاق والقانون؟ وكان هابرماس أيضًا مثقفًا ديناميًا، حاضرًا بقوة في المشهد الثقافي وفاعلا فيه، يتحدث بانتظام إلى الصحافة ويشارك في المناقشات العامة. كيف نربط هذه المواقف بعمله النظري الدقيق؟

كتاب حوارات مع يورغن هابرماس، جاء نتيجة مؤتمر دولي، قدم لمحة شاملة عن رحلة هابرماس الفكرية من بداية كتاباته إلى آخرها، واتصالا بالفضاء العام، والعمل التواصلي، والحداثة، والديمقراطية، والاستقلال الذاتي، ومصالح المعرفة، إلخ. هذه هي القضايا التي تُناقش على ضوء فلسفة هابرماس. وعلى نطاق أوسع، الكتاب نفسه تحيين جديد لتيار فكري ناقش مواضيع راهنة ومصيرية مثل: تأثير القانون على المجتمع، وكيف يمكن فهم أزمات الرأسمالية، أو العلاقة المعقدة بين الحداثة والأديان. يتضمن هذا الكتاب نصين غير منشورين للفيلسوف، ونصًا افتتاحيًا عن أوروبا ونصًا ختاميًا يردّ على أسئلة حساسة وحرجة تعمق فهمنا لفسلفة هابرماس المهمة.

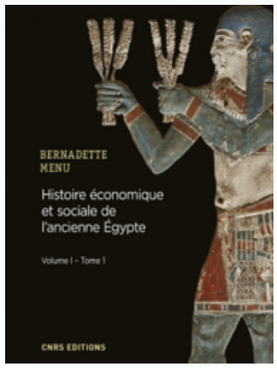

الكتاب: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمصر القديمة
المؤلف: برناديت مونو
الناشر: منشورات CNRS باريس. فرنسا
تاريخ النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٤٨٨ ص
اللغة: الفرنسية.

أهدتنا مصر القديمة مجموعة فريدة من النصوص الاقتصادية والقانونية، وصلتنا من خلال الجدران والحجارة والطين والعظام والعاج والمعادن، والجلد، والقماش، والخشب أو ورق البردي، فهي تسمح لعالم المصريات بالكشف عن الحضارة الفرعونية واكتشاف الحياة اليومية للمصريين القدماء.

يقترح هذا الجزء الأول- يتألف العمل من مجلدين- أولا إعادة بناء كرونولوجية استدلالية لفترة نشأة الدولة الفرعونية في الألفية الرابعة. تشكل المبادئ السياسية التي تم تطويرها خلال هذه الفترة الإطار الأيديولوجي لمفهوم ملفت للنظر للسلطة وتعبيراتها عبر التاريخ وذلك على مدى ثلاثة آلاف عام. ثم، تنتقل الباحثة إلى تحليل مفصل للوثائق المتعلقة بالملكية وتدبيرها للحكم، كما تتناول إدارة وبيع واستخدام الأراضي الزراعية التي تمكن من استعادة كيفية تطوير القواعد الاقتصادية والقانونية المدهشة آنئذ. تقدم برناديت مانو إعادة تفسير أساسي للنصوص الكبرى في مصر القديمة، من الصور إلى الضريبة المحاسباتية من خلال الكتابات السياسية والأوامر الملكية والمراسيم والمذكرات الإدارية، وأقوال العظماء والقرارات القضائية والعقود بين الأفراد والرسائل الإدارية والشخصية، مع الأخذ بعين الاعتبار أنَّ الدين والسياسة مرتبطان ارتباطًا وثيقًا في إنتاجها.

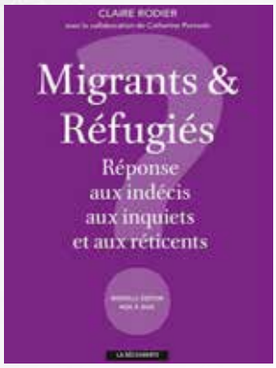

الكتاب: مهاجرون أم لاجئون
المؤلف: كلير روديي
الناشر: منشورات لاديكوفيرت. باريس. فرنسا.
تاريخ النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٩٦ ص
اللغة: الفرنسية.

إن وصول أعداد كبيرة من اللاجئين والمهاجرين إلى أوروبا، بدءًا من عام ٢٠١٥، فضلاً عن العديد من الوفيات في البحر الأبيض المتوسط ، بما في ذلك مأساة الصغير «إيلان كردي» التي تناولها الإعلام بكثافة، وكانت مبعث تفاعل واستنكار من طرف السكان الأوروبيين. ومع ذلك، فقد كانت تلي مرحلة الاستقبال الأولى، انتشار خطاب رسمي لمواجهة أو حتى معاداة المهاجرين القادمين في أوضاع مأساوية، وهكذا تدريجيا وتحت ضغط من اليمين المتطرف الأوروبي، تحول، أولئك الذين يساعدون المهاجرين إلى أعداء وتشهد على ذلك الهجمات التي تعرضت لها سفينة أكاريوس الإنسانية في عام ٢٠١٨.

على الرغم من الانخفاض الكبير في عدد الوافدين غير الشرعيين إلى أوروبا، إلا أن التعبير عن المخاوف والتردد بين هؤلاء الذين دفعهم الوضع التراجيدي للمهاجرين للتضامن الإنساني معهم وفتح أبوابهم لهم، إلى طرح العديد من الأسئلة: ما الفرق بين اللاجئين والمهاجرين؟ وكم عددهم الحقيقي؟ هل لفرنسا وأوروبا القدرة على استيعاب هؤلاء المهاجرين، في ضوء الأزمة الاقتصادية الحالية؟ لماذا تستخدم الحدود إن كانت بدون جدوى؟ ما هي ضريبة هذا التضامن؟ ألن يكون من الأفضل مساعدتهم على البقاء في بلدانهم؟ من أجل الإجابة دون طابوهات على هذه الأسئلة الشرعية، والكثير غيرها، أعدت الباحثة الاجتماعية كلير روديي كتابها التوثيقي المزعج عن المهاجرين واللاجئين، الذي سيبقى، دون شك، شاهدا على مرحلة تاريخية مضطربة ومؤلمة من تاريخ القرن الواحد والعشرين.

إصدارات عالمية جديدة

الكتاب: الحقائق الخفية لحرب الجزائر.
المؤلف: جان سيفيا
الناشر: منشورات لاديكوفيرت. باريس فرنسا.
تاريخ النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٤١٦ ص – اللغة: الفرنسية
بعد أكثر من نصف قرن على استقلال الجزائر، هل يُمكن لأحد أن يروي بدون موارية تاريخ الحرب المريرة بين الجزائر وفرنسا والتي في نهايتها أصبحت الجزائر بعد مائة وثلاثين سنة من الاستعمار الفرنسي دولة ذات سيادة؟ الحديث عن الغزو الاستعماري في القرن التاسع عشر، والأوضاع المختلفة لمجتمعات في القرن العشرين، والصراع الرهيب الذي أدمى الجزائر وأحياناً مدنه الكبرى من عام ١٩٥٤ إلى عام ١٩٦٢، كل هذه الأهوال كانت عرضة للأفكار الجاهزة والأحكام المسبقة.
بهذا الكتاب الهام، يواجه المؤرخ الفرنسي جان سيفيليا تاريخ الحرب في الجزائر كما كانت عليه من تمزق مأساوي لم يكن فيها أي طرف يحتكر البراءة أو الذنب، وحيث خسر كل من الفرنسيين والجزائريين أشياء كثيرة، حتى لو تجاهلوها أو أنكروها، فإنَّها عالقة اليوم ويجب حلحلتها تدريجياً من الذاكرة الجريحة. كتاب يستحق أن يترجم إلى اللغة العربية، ليطلع عليه القارئ الجزائري خاصة والقراء العرب بصفة عامة.

**** *** *** *** *** **

آخر الإصدارات الفلسفية في اللغة الإنجليزية (محمد الشيخ).

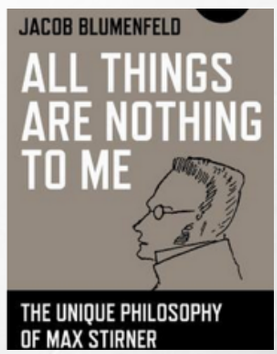

العنوان: كل الأشياء لا تُعَدُّ عندي: فلسفة ماكس شتيرنر الفريدة
المؤلف: جاكوب بلومنفلد
دار النشر: زيرو بوكس (ونشستر [المملكة المتحدة] وواشنطن [الولايات المتحدة الأمريكية])
سنة النشر: ٢٠١٨ – عدد الصفحات: ١٦١.
مدار هذا الكتاب على الفيلسوف الألماني «المنبوذ» و«الملعون» ماكس شتيرنر (١٨٠٦–١٨٥٦) الذي يكاد يكون مجهولا بالتمام والكمال في العالم العربي، بل وحتى في العالم الغربي نفسه. ولذلك يستحق صدور هذا الكتاب أكثر من ترحيب. وهو يتناول فكر صاحب كتاب «الفريد وتملكه» (١٨٤٤) الذي يعد نقدا جذريا للمجتمع الحديث، بل وللمجتمع بصفة عامة، وذلك باسم «أنا» متمردة ثائرة لا تعترف إلا بنفسها ولا تريد أن يتملكها أحد كائنا من كان، بما في ذلك المجتمع. بتؤدة وأناة يعيد جاكوب بلومنفلد هنا إعادة بناء فكر الرجل الذي أثر ـ أسلبا كان أم إيجابا ـ في العديد من مفكري القرن التاسع عشر والعشرين، من ماركس ونيتشه إلى عتاة فوضوي هذا الزمان، مرورا بالفيلسوفة إمَّا غودمان وبأصحاب النزعة النسائية وبالسوريالين والوجوديين، بله الفاشستيين والتحرريين والدادائيين والعدميين ... كتاب يسبح ضد التيار الأغلبي.

**** *** *** *** *** **

العنوان: الإله المجهولة ذاته المعلومة أفعاله: مسألة امتناع الرب عن فهم البشر من خلال مناظرة الأقانيم الثلاثة في القرن الرابع الميلادي بين أوريجنس وجريجوريوس النيسي وبازليوس القيصري
المؤلف: توماس ستيبين وكارولينا كونشانكزيك– بونينسكا
دار النشر: بيتر لانغ (برلين/ألمانيا)
سنة النشر: ٢٠١٨
عدد الصفحات: ٢٥٦.
هذا كتاب في فلسفة اللاهوت يطرح السؤال الجوهري التالي: ما الذي يُمكن للإنسان أن يعلمه عن الله؟ وهو يتناول هذه المسألة من خلال المناظرة التي جمعت بين بعض أشهر علماء الكلام المسيحيين في القرن الرابع الميلادي. فقد أعلن أونومينوس أنه يمكن أن نعلم ـ معشر البشر ـ كنه الرب وفعله، بينما أكد أورثدوكسيو الكنيسة أننا لا يمكن أن نعلم سوى أفعال الله الخارجية، هذا في الوقت الذي يبقى فيه كنه الرب مجهولا لنا إلى الأبد. هذا مع تقدم العلم أن المسألة سوف تطرح قرونا بعد ذلك في علم الكلام الإسلامي بين أشهر متكلمة الإسلام: ما بين منكر لإمكان تبين كنه الله، ومثبت لإمكان تبينه. يكفي أن نذكر هنا مقطعًا للطوسي يجيب فيه على القونوي: «وأما قوله [=القونوي]: «مع اتفاق جميع العقلاء بأن حقيقته [= حقيقة الله] مجهولة»، فمن الواجب أن يقول: «مع اتفاق الحكماء، لأن مشايخ المعتزلة من المتكلمين يدعون أن حقيقته تعالى معلومة للبشر كما هي».

**** *** *** *** *** **

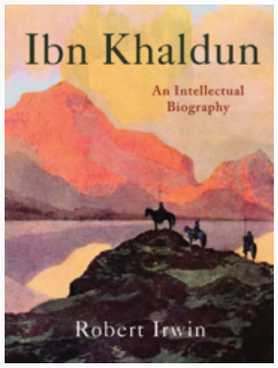

العنوان: ابن خلدون: سيرة فكرية
المؤلف: روبرت إروين
دار النشر: منشورات جامعة برينستون [الولايات المتحدة الأمريكية]
سنة النشر: ٢٠١٨ – عدد الصفحات: ٢٧٢.
يطلع علينا روبرت إروين (١٩٤٦–) ـ وهو مؤرخ ومستشرق وروائي بريطاني مسلم، صاحب كتاب «من أجل متعة المعرفة: المستشرقون وأعداؤهم» (٢٠٠٦)، و«المماليك والصليبيين» (٢٠١٠)، و«مذكرات درويش» (٢٠١١) ـ بكتاب: «ابن خلدون: سيرة فكرية» (٢٠١٨) يروي لنا فيه كيف أن ابن خلدون، الذي عاش في عالم دمره الموت الأسود [=الطاعون]، تولى العديد من المناصب في العالم الإسلامي المضطرب، وصار شيخ علم وقاضيا ومؤلفا. ويضع المؤلف كتابات ابن خلدون ـ لا سيما منها المقدمة ـ في سياقها التاريخي والفكري الإسلامي العام. ويلاحظ أنه بسبب المعية الرجل وكونه رائية لماحة اعتُبر مفكرا سابقا لأوانه، بل ومفكرا حداثيا حتى. ويناقش المؤلف هذا الرأي مبيناً فساد هذه القراءة وصلة ذلك بالاستشراق. والبديل الذي يراه المؤلف عن القراءة الخاطئة لابن خلدون أن الرجل كان ابن وقته ـ درويش تقي مهووس بالعلوم المستورة وبقراءة المستقبل عاش في عالم غريب مخالف لعالمنا!

حالياً في الأسواق..

مجلة التفاهم

إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ

الإسلام والرسالة العالميّة

عبد الرحمن السالمي

المحاور

– مقولة الدين الواحد في الفكر الإسلامي – محمد المنتار.

– عالم الغيب وعالم الشهادة: قراءة في كتب المفكرين القدامى – محمد إدريس.

– العلاقات بين الأديان عن العامري والبيروني – منى أحمد أبو زيد.

– الديانات الإبراهيمية من الاختلاف إلى الائتلاف – رضوان السيد.

– معنى وحدة الدين وديانات التوحيد في تاريخ الإنسانية – محسن الخوني.

– نظرية الديانات العالمية عن علماء الدين الغربيين – عز الدين عناية.

– وحدة الدين والقيم الأخلاقية العالمية – محسن العوني.

دراسات

– في تجديد الفقه الإسلامي وأصوله: أهمية التنظير المقاصدي – محمد شهيد.

نحو أصول فقه متجدد: دراسة تطبيقية في محاولات الأصوليين (الشاطبي نموذجاً) بلخير عثمان.

– النزعة التوفيقية الدينية في مدرسة الإسكندرية الفلسفية القديمة (أوريجين نموذجاً) مصطفى النشار.

وجهات نظر

– التنسيقية والنقدية في الفكر الفلسفي العربي المعاصر (المغرب نموذجاً) – سعيد بنسعيد العلوي.

التسامح في الفلسفة الغربية: قراءة سوسيولوجية في تفكيكية جاك دريدا – محمود أحمد عبدالله.

– المفهوم الليبرالي للتعددية الثقافية – ياسر قنصوه.

آفاق

– فلاسفة الإسلام وطريق الحرير – عبدالرحمن السالمي.

– أوروبا والإسلام: مملكة الكاهن يوحنا (الحقيقة – الأسطورة – المغزى) – حاتم الطحاوي.

– مدخل فقه الحياة لتأسيس منظومة الزواج – سوسن الشريف.

مدن وثقافات

الحياة الثقافية في بغداد في التراث العربي الإسلامي: عصر السيادة الإسلامية – عمرو عبدالعزيز منير.

الإسلام والعالم

– اللاهوت المسيحي في ضوء الإسلام – طوبيا سبيكر.

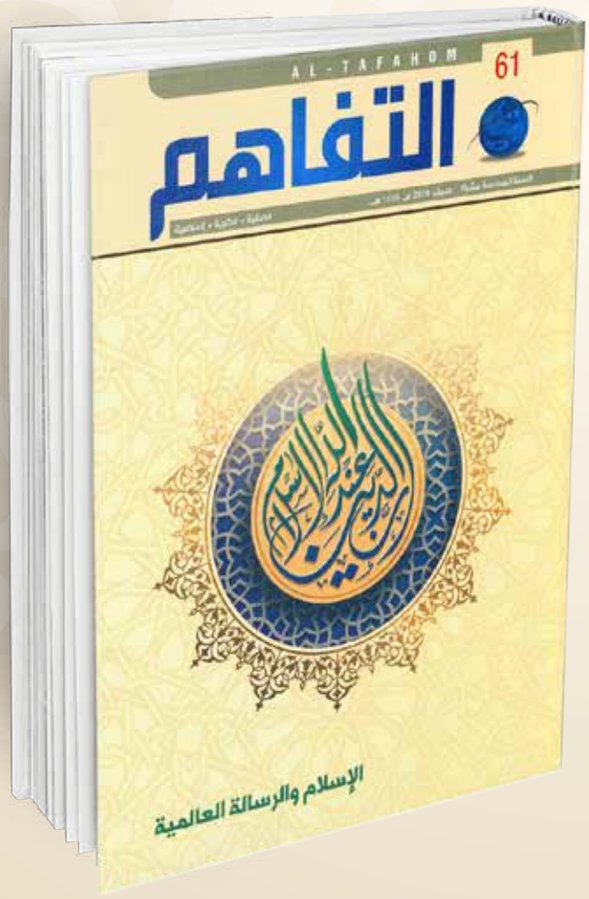

النصوص المنشورة تعبر عن وجهات نظر كتابها ولا تعكس بالضرورة رأي مجلة التفاهم أو الجهة التي تصدر عنها.

مجلة التفاهم هاتف : ٢٤٦٤٤٠٣١ – ٢٤٦٤٤٠٣٢ ٩٦٨+ ، فاكس : ٢٤٦٠٥٧٩٩ ٩٦٨+

البريد الإلكتروني : tasamoh@gmail.com - al.tafahoom@gmail.com - www.altafahom.net